

المكتبة الثقافية

٢٣

صلاح الدين الأيوبي

بين شعراء عصره وكتابه

الدكتور أحمد أحمد بردى

وزارة
الثقافة والإعلام
الإدارة العامة للثقافة

١١٥ أكتوبر ١٩٦٠

90
49

909.097492702

٩
٧٤

اهداءات ١٩٩٨

أ.د. محمد العزيز برهام

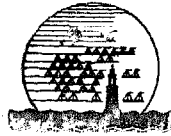
رئيس قسم اللغة العربية الأسبق - الإسكندرية

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الإسكندرية
الأستاذ الدكتور

عبد العزيز
نائب رئيس اللجنة القومية
للإسكندرية

المكتبة الثقافية



٢٣

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

صالح الدين الأيوبي

بين شعراء عصره وكتابه

الدكتور أحمد أحمد بدوي

المكتبة الثقافية

رقم التسجيل: 909-097492708

ص. ٢٧

رقم التسجيل: ١٢٧١٢/٥

وزارة
الثقافة والإعلام
الإدارة العامة للثقافة

١٥ أكتوبر ١٩٦٠

الناشر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

صلاح الدين الأيوبي من كبار الأبطال الذين لهم ذكر خالد في تاريخ الإسلام . يقترن اسمه العظيم بالحروب الصليبية ، وباسترداد فلسطين وبيت المقدس من الفرنج الذين اغتصبوا تلك الديار حينما من الزمن طويلا .

وقد كان هذا البطل معقد آمال المساميين في عصره ، رأوا فيه القائد الملمهم القدير على استرداد الوطن السليب من يد أعدائه الطغاة الظالمين .

ورأى قبل أن يهاجم عدوه أن يعتمد على وحدة يشد بها ساعده ، إيمانا منه بأن تلك الوحدة هي الدعامه القوية لتحقيق الهدف الذي وضعه نصب عينيه ؛ فوحد سوريا ومصر تحت رايته وأقبل بهذا الوطن الموحد على العدو، فشتت جموعه وحطم قواه . كانت شخصية هذا البطل مثار إعجاب معاصريه ، وموطن

حبهم وتقديرهم ، والقارىء لتاريخ الرجل يلمس مدى هذا الإعجاب والحب والتقدير .

ورأى فيه الشعراء والكتاب مثلاً من الأمثلة العليا للإنسانية فسجلوا في آدابهم سماته الخلقية ، وجهاده المتصل ، ووفدوا عليه يسمعونهم شعرهم ، أو يرسلون إليه بهذا الشعر إن لم يستطيعوا أن يفدوا إليه ، فكان من ذلك مقدار ضخّم من الأدب : شعره ونثره ، بطله صلاح الدين .

وقد أردت أن أدرس هذا الأدب ، لأرى كيف صور ذلك البطل ، موازناً بين الصور كلما استطعت ، واقفاً عند الخلقيات النفسية التي تنبض بها أبيات الشعر ، وتتحدث عن آمال الشعب وأمانيه ، مقدماً بين يدي ذلك دراسة تاريخية موجزة لصلاح الدين ، ليتم بذلك رسم حياته من الناحية التاريخية ، وسامع صداها في الشعر والنثر معاً .

والله يهدي إلى سواء السبيل

حياة مجيدة

- ١ -

كانت الحياة السياسية بمصر في أواخر العصر الفاطمي قد نالها الفساد والضعف ؛ لتنافس الوزراء في الاستئثار بالحكم، والافراد بالسلطان ؛ وزادهم شراهة في التطلع إلى كرسي الوزارة والتمسك به أن الخليفة يومئذ لم يكن له من الأمر من شيء ، لصغر سنه حيناً ، وضعفه حيناً آخر .

وكان آخر من جلس على عرش الخلافة الفاطمية طفلاً لم يبلغ سن الرشد لقب بالعاقد لدين الله ، اختاره الوزير طلّاح ابن رُزَيْك ، ليكون أداة في يده ، لاحول له ولا قوة ، وثقلت وطأة الوزير على القصر ، فدبرت الأسرة المالكة له مكيدة راح ضحيتها ، فمات جريحاً بعد نحو عام من ولاية العاقد في رجب سنة ٥٥٦ هـ .

ولم يكد يتولّى ابنه : رُزَيْك الوزارة للعاقد ، حتى حدثت النفرة بينه وبين والى الصعيد شاور السعديّ الذي قلب لابن مولاه ظهر الحن ، وأقبل إلى القاهرة في جمع حاشد فرّ أمامه

رمزيك ، ولكنه لم ينج ، بل قتله « طي بن شاور » ، وخرّبت
دور بني رزيك ، وأخذت أموالهم .

واستقبل الشعب قتل « رزيك » بنفور وألم ؛ فإن المدة
التي قضاها وزيراً وهي عام وبعض عام حبّبت الناس فيه ، إذ أعفاهم
من ضرائب كانت باقية عليهم ، ولذلك خذلت القاهرة شاور
عندما خرج عليه ضرغام في رمضان سنة ٥٥٨ هـ ، وأخرج
شاور من القاهرة ، وقتل ولده طي ، وتولى ضرغام وزارة
العاضد .

التجأ شاور إلى نور الدين محمود صاحب الشام ، وطلب
منه المعونة على ان يقدم إليه ثلث إيراد مصر سنويا ، ويكون
« شيركوه » قائد جيش نور الدين مقياً بعساكره في مصر ،
وأن يتصرف « شاور » نفسه بأمر « نور الدين » ؛ فبقي أمير
الشام يقدم رجلاً ويؤخر أخرى : « فتارة يحمله رعاية قصد
شاور له ، ورغبته في التقوى على الفرنج ؛ وتارة يمنعه خطر
الطريق وأنّ الفرنج فيه ، وخوفه من أن شاور لا يفي له إن
استقر له الأمر في مصر . » وأخيراً تغلب جانب الأمل في نفسه ؛
فجهز جيشاً من رجال أقوياء ممتازين جعل قيادتهم « لأسد الدين
شيركوه » ، ومعه ابن أخيه « صلاح الدين » ، وجدّ الركب

في المسير إلى مصر. وعند القاهرة تمت هزيمة «ضرغام» وقتله.
عاد «شاور» إلى الوزارة، وقرّر رأيه على أن ينفرد بمصر،
ويبعد عنها نور الدين، فأرسل إلى شيركوه يأمره بالعودة إلى
الشام، فأبى، وطلب منه أن ينفذ ما اتفق عليه هو ونور الدين،
فلم ينجبه شاور، وفكر في الاستنجاد بالفرنج، فأرسل إليهم
يخوفهم من نور الدين إن تم له توحيد مصر والشام تحت رايته،
وكانوا على يقين من الهلكة إن تم لنور الدين ذلك؛ فقد ذاقوا
منه الأمرين وليس تحت يده سوى موارد «سورية» وحدها؛
فكيف إذا ضم إلى ذلك موارد مصر وثروتها، فلم يترددوا
في إجابته، وأرسلوا جيشاً لجبا إلى مصر، حاصر هو وجيش
«شاور» «أسد الدين شيركوه»، وانتهى الأمر بصلاح يعود
به جيشا الفرنج وأسد الدين إلى الشام؛ وهكذا أفلت «شاور»
من «نور الدين» والفرنج معاً في ذى الحجة سنة ٥٥٩ هـ.
ولكن لم يغب عن خاطر الفريقين أهمية مصر، وقيمة ثروتها،
وعظم مكاتها، فحاول أن يضمها كل إلى بلاده، فجاء إلى مصر
جيش نور الدين مرة، وجيش الفرنج أخرى، وعاد الجيشان
من حيث أتيا؛ ولكن الفرنج طلبوا من «شاور» أن تكون
لهم حامية بالقاهرة، وتكون أبوابها بيد فرسانهم، حتى

لا يستطيع نور الدين أن يرسل جنده إليهم ، ويكون لهم من دخل مصر في كل سنة مائة ألف دينار . وبذلك نجح الفرنج في وضع يدهم على مصر والاستعانة بأموالها ، وذلك بفضل « شاور » وسوء تديره .

ظلّ الفرنج أكثر من عام في مصر ، ينالون المصريين بالأذى ، ويتدخلون في شؤون الإدارة ، كما بدأ لهم ، وطال منهم العسف والظلم ، ففكروا في الاستيلاء على مصر استيلاء كاملا ، وأرسلوا إلى ملك بيت المقدس : أمرى Amalric يستدعونه ؛ ليلكها ، وهونوا عليه أمرها ، فبعد تردد قليل أقبل على مصر بجيش ضخم نازل مدينة « بلبيس » في مستهل صفر سنة ٥٦٤ هـ ، واستولى عليها بالسيف ، ونهبها ، وأخذ فيها قتلا وأسرا ، ثم سار إلى القاهرة ، وقد سبقه إليها ما نشره من الرعب ، وما بثه من الدمار ؛ وهنا لم يجد العاضد بدامن أن يرسل إلى « نور الدين » يستنجد به ، ويستحثه على القدوم ؛ لإنقاذ مصر من الفرنج ، وأرسل في الكتيب شعور النساء ، وقال : هذه شعور نساء من قصرى يستغثن بك ، لتنقذهن من الفرنج ، وانضم الناس إلى القاهرة ، وناذى « شاور » الأيقيم أحد بالفسطاط ، فانتقل منها الناس ، وتركوا أموالهم

وأثقالهم ، ونجوا بأنفسهم ، ونزلوا بالقاهرة في المساجد
والحمامات ، والأزقة ، وعلى الطرقات ؛ وبعث « شاور »
إلى القسطنطينية بعشرين ألف قارورة نفط ، وعشرة آلاف
مشعل نار ، وفرق ذلك فيها ، فارتفع لهب النار ودخان الحريق
إلى السماء ، وصار منظرًا مهولاً ، واستمرت النار تأتي على
مساكن مصر أربعة وخمسين يوماً ، وحارب ملك الفرنج
القاهريين الذين استماتوا في الدفاع عن بلدهم ؛ فطلب الفرنج
الصلح على مال يأخذونه ، وآبوا راجعين إلى بلادهم ، بينما كان
« أسد الدين شيركوه » يبحث الخطأ إلى مصر ، حتى وصل
إلى القاهرة بعد خروج الفرنج ، فسربه « العاضد » وخلع
عليه ، بينما أراد « شاور » أن يتخلص منه كسابق عهده ،
ولكن الأمر انتهى بقتل « شاور » في ١٧ من ربيع الآخر
سنة ٥٦٤ هـ ، وبعث العاضد منشوراً بالوزارة إلى أسد الدين
شيركوه الذي مات بغتة بعد نحو شهرين من ولايته في يوم
السبت ٢٢ من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ ، وتولى الوزارة بعده
ابن أخيه صلاح الدين ، ولقب بالملك الناصر .

وضع صلاح الدين نصب عينيه منذ تولي وزارة مصر أن يكسب حب الجمهور ، وأن ينال ولاء الجيش ؛ ليتخذها العدة فيما يهدف إليه من كبار الآمال ؛ فقد قال ابن شداد في كتابه النوادر السلطانية : « ولقد سمعت منه يقول : لما يسر الله لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل ؛ لأنه أوقع ذلك في نفسي » . وليس بغريب أن يمر هذا الحاطر بقلب صلاح الدين ، فالدى مصر من الرجال والمال جدير أن يشير مثل ذلك .

وغازط الفرنج أن تقلت مصر من أيديهم ، وأن يقوى بها نور الدين ، فيصبحوا محصورين بين قوته في الشمال وقوته في الجنوب ، فأجمعوا أمرهم على مهاجمة دمياط ؛ ليتخذوها قاعدة يهاجمون مصر منها ، فاجتمعوا عليها ، وحصروها ، وضيقوا على من بها ، فوقف صلاح الدين جهوده على إيقادها ، فأرسل إليها كل جنده ، وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر ، وأرسل إلى نور الدين يستعين به ، فأمدته بالجنود يتلو بعضها بعضاً ، وخرج هو نفسه إلى بلاد الفرنج يغير أعيانها ؛ فلما رأى الفرنج

تتابع الجند ، وقوة الدفاع ، ومهاجمة بلادهم في الشام ، رحلوا عن دمياط ، بعد أن أقاموا عندها خمسين يوماً ، وقد نهبت آلاتهم ، وأحرقت مجانيقهم ، وقتل منهم خلق كثير ، وقوى مركز صلاح الدين بهذا النصر ، وظهر أمام المصريين بمظهر القدير على حماية البلاد . ولم يكتف بهذا بل أخذ يتجهز ، لاليقف موقف المدافع ، بل موقف المهاجم لأعدائه ، ففي جمادى الآخرة سنة ٥٦٦ هـ خرج صلاح الدين إلى الشام ، فأغار على غزة وعسقلان والرملة ، ومضى إلى أيلة ، وكان بها قلعة فيها جماعة من الفرنج ، وساعده الأسطول في البحر ، فافتتحها ، وقتل من فيها من الفرنج ، وملاها بالرجال والعدد ، وكان على الحجاز منها خطر عظيم ، وعاد صلاح الدين إلى مصر منتصراً .

القضاء على الخليفة الفاطمية :

قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية ، في مطلع سنة ٥٦٧ هـ ، ولم يكن في ذلك مفاجأة للمصريين ، بل كانوا يتوقعونه منذ استولى « شيركوه » على الوزارة في مصر ، فقد كان سنياً يدين بالولاء لأمره الشفي نور الدين الذي كان يدين لبغداد

بالصلة الروحية ، وساعد على إعدادهم لهذا التغيير ما بدا به صلاح الدين من عزل القضاة الشيعيين وإقامة قضاة سنّيين في جميع البلاد ، وبدأ هو وبعض أفراد أسرته بإنشاء المدارس للسنّيين . وأكبر ظني أن أسماء الخلفاء الفاطميين في هذه العهود الأخيرة ما كانت لتثير في نفوس سامعيها معنى سوى الإشفاق على شخصيات هزيلة ليس لها حول ولا قوة ؛ فلم يجد المصريون معنى للاحتفاظ بأسماء هذه الشخصيات ، ولا سيما أن صلاح الدين قد كسب القلوب بشجاعته وعدله وحسن تديره في دفع العدو عن البلاد ، وقد كان ذلك أكبر ما تحتاج إليه الأمة المهتدة بالعدو في تلك العصور ، ومن أجل هذا لم يبد الشعب رغبة في إعادة هذه الدولة ، وكل ما بذل من محاولات لإعادتها كان من جانب طائفة طامعة في فوائد مادية ، ولم يستجب الشعب لهذه المحاولات .

وأخذت الظروف تهيب لصلاح الدين توحيد مصر والشام تحت رايته ، فقد مات نور الدين في شوال سنة ٥٦٩ هـ ، وبذلك أمن صلاح الدين أن يكون لأحد سلطان فعلي عليه ، وصار هو الحاكم الحقيقي لمصر وما فتحه من بلاد المغرب واليمن ، وارتقى على عرش دمشق الصالح إسماعيل بن نور الدين شموذ ، وكانت سنه

يومئذ إحدى عشرة سنة ، فأثار صغر سن الملك أطماع الأمراء ،
ورأى صلاح الدين أن يوقف هذه الأطماع ، ولعل صلاح الدين
كان يرمى إلى أن يصبح الوصي على العرش ؛ ففتح البلاد كلها
تحت سلطانه الفعلي ، ويقوم بتنفيذ برنامجه في طرد الصليبيين ،
فعزم صلاح الدين على قصد الشام ، ولاسيما أن الفرنج طمعوا
في البلاد بعد وفاة نور الدين . ولكن أسرة الصالح إسماعيل
أحست بالخطر الذي يهددها من ناحية صلاح الدين ، فلما إن قدم
إلى الشام حتى ترك الصالح دمشق ومضى إلى حلب ، ودخل
صلاح الدين دمشق في أول ربيع الآخر سنة ٥٧٠ هـ ، ودارت
بينه وبين أسرة الصالح عدة وقائع انتهت بصلح بينه وبينهم على
أن يكون له ما يده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها . وظل
صلاح الدين يعمل على توحيد الشام وبلاد الجزيرة وديار بكر ،
حتى تم له ما أراد ، بعد موت الصالح إسماعيل سنة ٥٧٧ هـ ، وعقد
الصلح بينه وبين صاحب الموصل سنة ٥٨١ هـ على أن يخطب
لصلاح الدين على منابر بلاده ، ويضرب اسمه على السكة ، وأن
يسرع إليه بجيشه إذا طلبه صلاح الدين إلى ميدان القتال ، فلم
يعد في تلك الرقعة من الأرض من هو غير خاضع لصلاح الدين ،
كما أن أخاه سيف الإسلام فتح له بلاد الحجاز ، وضرب الدرهم

باسم صلاح الدين وهكذا اتحد قسم كبير من العالم العربي تحت لواء بطل يستطيع أن يقوده إلى الظفر والنصر . اتحدت مصر والشام والموصل وديار الجزيرة والحجاز واليمن وجزء من بلاد المغرب ، ووضعت ماتملكه من الإمكانيات ليحقق بها صلاح الدين ما كان يرنو إلى تحقيقه المسلمون يومئذ من تحرير فلسطين من يدي مغتصبها .

ولم يقصر صلاح الدين ، فقد أرسل إلى جميع أجزاء إمبراطوريته يستفز الناس لقتال الفرنج ، يحببهم في الجهاد ، ويحثمهم عليه ، ويأمرهم بالتجهز له ، فأقبلت الجيوش من كل حذب ، ومضى صلاح الدين على رأس جيشه ، فالتقى بالفرنج عند « حطين » ودارت عندها معركة لم يذق الفرنج مثلها منذ قدموا من ديارهم غازين بلاد الشام ، ومضوا بين أسير وقيل .

لم ينتظر صلاح الدين حتى يجمع العدو شملة المبدد ، بل مضى يتابع انتصاراته ، وأخذت مدن العدو تسقط في يده ، الواحدة إثر الأخرى ، حتى إذا سقطت « عسقلان » والبلاد المحيطة بالقدس شمر عن ساعد الجدد ، وذهب إلى بيت المقدس يريد فتحه ، وهنارأى العدو أنه لا قبل له بالجيش الزاحف ، فاستكان وطلب الأمان ، وفتحت المدينة أبوابها لاستقبال صلاح الدين

يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ ؛ وقد صمخ
السلطان للفرنج المدينين - إذا شاءوا - أن يعيشوا رعية له ،
أما المحاربون فعليهم أن يخرجوا بنسائهم وأطفالهم خلال أربعين
يوما ، على أن يدفع كل رجل عشرة دنانير ، وكل امرأة خمسة ،
وكل طفل ديناراً ؛ فإذا لم يستطع واحد أن يدفع فهو أسير .
غير أن السلطان لم ينفذ ذلك حرفياً ؛ فقد دفع هو نفسه فدية
عشرة آلاف ، ودفع أخوه الملك العادل فدية سبعة آلاف ، بينما
مضى عدة آلاف بدون فداء . وقد حمل الناس والكهنة ذخائرهم
من غير أن يتعرضوا لأقل أذى ، بل قدمت الدواب لكثير من
الذين لا يجدون ما يركبون .

لقد كانت إنسانية صلاح الدين على النقيض تماماً من وحشية
أولئك الذين فتحو القدس من يد المسلمين ، ومن قسوة أمراء
الصلبيين ، فإن كثيراً ممن تركوا بيت المقدس مضوا إلى أنطاكية
غير أن أميرها « بيمند » Bohemond طردهم ، وأبى أن يقبلهم ،
كما أغلق صاحب طرابلس أبواب مدينته في وجوههم ؛ فمضوا
إلى بلاد الإسلام حيث استقبلوا هناك أحسن استقبال .

أصلح صلاح الدين ما تخرب من المدينة ، ورمم ما تهدم من
المساجد والمدارس ، وحكم المدينة حكماً يسوده العقل والحريّة ،

على العكس تماما من حكم الصليبيين الجائر .
ومضى صلاح الدين من القدس إلى صور، ولكنه لم يفتحها،
فقد تجمع فيها الصليبيون من كل فج ، وأبى قائدها أن يسلمها .
وهنا يذكر المؤرخون خطأ صلاح الدين حينما سمح بهذا
التجمع في تلك المدينة ، ليتخذوها موطناً لهم .
ترك صلاح الدين صور ، ومضى إلى شاطئ البحر ؛
فأخضع ما بأيدي الصليبيين من مدنه ، ولم يمض عام ٥٨٤ هـ حتى
كانت صور هي الخطر الوحيد الذي يهدد صلاح الدين .

— ٣ —

كانت انتصارات صلاح الدين وسقوط بيت المقدس سببا
في قيام حرب صليبية أخرى ؛ فقد ثارت ثائرة أوروبا ، وبذل
رجال الدين كل جهد ، ليوقظوا غضب الجماهير ، وليشركوا
ملوك أوروبا وأمراءها في الحرب ، وأرسل صاحب « صور »
صورة القدس في ورقة ، وصور فيها صورة « كنيسة القيامة »
التي يحجون إليها ، ويعظمون شأنها ، وفيها قبة قبر المسيح في
حالة مهينة ، وأبدى هذه الصورة في الأسواق والجامع ، وحملها
القسس وراءهم مكشوفة ؛ وقد كللت هذه الجهود بالنجاح ،

إذ اشترك في الحملة الملوك الثلاثة أعظم ملوك أوروبا ، وهم :
« فردريك بارباروس » إمبراطور ألمانيا ، « وفيليب أوغسطس »
ملك فرنسا ، و « ريتشارد » قلب الأسد ملك إنجلترا .

أقبل الصليبيون من كل مكان ، والتأم ثملهم في صور ، وقر
رأيهم على مهاجمة « عكا » ؛ لحصانة موقعها ، ولأن الطريق إليها
شاطئ البحر حيث تحميمهم سفنهم ، وكان البحر أعظم مساعد
لهم ، يحمل إليهم المواد الحربية والمؤن والرجال . وقد وصلوا
أمام « عكا » في ١٥ من رجب سنة ٥٨٥ هـ ، ووضعوا عليها الحصار .
عندما سمع صلاح الدين بحركة الفرنج جمع أمراءه للاستشارة ،
وكان رأيه أن يهاجمهم في الطريق قبل أن يصلوا إلى « عكا » ،
ولكن أمراءه أقنعوه بأن الخير في أن تدور المعركة أمام « عكا »
وعندما ذهب صلاح الدين إلى المدينة وجد الفرنج قد أحاطوا
بها ، ومنعوا كل اتصال معها ، فعسكر صلاح الدين في مواجهتهم .
ويقول المؤرخون : لو أن صلاح الدين عمل تبعاً لرأيه الخاص ،
وهاجم الصليبيين قبل أن يحاصروا المدينة لأتقدها ، ولكن
تلك إرادة الله .

أقبل على صلاح الدين بعض المدد ، بينما كانت الإمدادات
تتري على الصليبيين من البحر . وفي أول شعبان دارت معركة

زحزحت الصليبيين عن أماكنهم ، واستطاع المسلمون أن يتصلوا
«بعكا» ، فغيروا حاميتها ، وأمدوها بالثبونة ، وكلفوا الصليبيين
كثيرا من القتلى ، فراجع هؤلاء خلف خيامهم .

كانت قوى صلاح الدين مبعثرة في البلاد ، فكان جيش
يراقب يومئذ أمير «أنطاكية» ، وآخر مقيم في «الرها» مواجه
لطرابلس للدفاع عن الحدود ، وثالث يراقب «صور» ورابع
في دمياط والإسكندرية ؛ ليحتاط ضد الصليبيين القادمين من
البحر ؛ ولذلك كان جيش السلطان أقل عددا من جيش الصليبيين .
ولقد طمع الفرنجة في صلاح الدين ، وأرادوا نزله قبل أن تصل
إليه أمداد أخرى ، فهاجموه في معركة فقدوا فيها عشرة آلاف
رجل ، وجمع صلاح الدين أمراءه وأرباب مشورته ، وأمرهم
بالإصغاء إلى كلامه ، ثم قال : «باسم الله ، والحمد لله ، والصلاة
على رسول الله ، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا ، قد نزل
في بلدنا ، وقد وطئ أرض الإسلام ، وقد لاحت لوائح النصر
عليه إن شاء الله تعالى ، وقد بقي في هذا الجمع اليسير ، ولا بد
من الاهتمام بقلعه ، والله قد أوجب علينا ذلك ، وأتمتع تعلمون
أن هذه عساكرنا ، ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك
العادل ، وهو واصل ، وهذا العدو ، إن بقي وطال أمره إلى

أن يفتح البحر جاءه مدد عظيم ؛ والرأى كل الرأى عندى
مناجزتهم ؛ فليخبرنا كل منكم بما عنده فى ذلك » ؛ فأخذ المجلس
يقلب الأمر على وجوهه ، وقر الرأى على أن يبقى العسكر أياما ،
حتى يستجم من حمل السلاح فقد أخذ التعب منهم ، واستولى على
نفوسهم الضجر ، وتكليفهم أمرا على خلاف ما تحمله القوى
لا تؤمن غائلته ، والناس لهم خمسون يوما تحت السلاح وفوق
الحيل ، والحيل قد ضجرت من عرك اللجم ، وسئمت نفوسها
ذلك . وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها ، ويصل الملك
العادل ، ويشارك فى الرأى والعمل ، ويعود من شدّة من العساكر ،
واتفق الجمع على ذلك ، ورأوه مصلحة . وكان ذلك فى أواخر
شعبان سنة ٥٨٥ هـ .

وأما الفرنج فقد استردوا هدوءهم ، وأعادوا حصار « عكا »
وحفروا خندقا حول معسكرهم ، ليحموا أنفسهم ضد هجمات
صلاح الدين ، وأقاموا حائطا يحتمون خلفه إذا هزموا .

ومر عام ٥٨٦ هـ ، و« عكا » محاصرة ، ولم يستطع جيش
الصليبيين دخول المدينة ، ولم يوقع جيش صلاح الدين بهم معركة
حاسمة تضطرهم إلى رفع الحصار عن المدينة .

ووردت الأخبار بمسير إمبراطور ألمانيا بجيش لجب ؛ فجمع

صلاح الدين امرء دولته وأرباب الآراء ، وشاورهم فيما يصنع ،
فاتفق الرأي على ان يسير بعض العسكر إلى البلاد المتاخمة لطريق
عسكر العدو ، وأن يقيم باقي العسكر أمام جيش الصليبيين
المحاصر « لعكا » .

ولما علم الصليبيون أن العساكر قد تفرقت لمقابلة إمبراطور
الألمان ، أجمعوا أمرهم على لقاء صلاح الدين ، فدارت معركة
رهيبة في ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ٥٨٦ هـ ، امتلأ فيها ميدان
القتال بقتلاهم وجرحاهم ، نخدمت جمرتهم ، ولانت عريكتهم ،
وأشار المسلمون على صلاح الدين بما كرتهم القتال ومناجزتهم
وهم على هذه الحال من الملح والجزع ، فاتفق أنه وصل من
الغد كتاب من حلب ، يخبر بموت ملك الألمان وما أصاب أصحابه
من الموت والقتل والأسر ، وما صار إليه أمرهم من القلة والذلة ،
واشتغل المسلمون بهذه البشرى والفرح بها عن قتال من
بإزائهم . ولكن لم يكد ينقضى يومان حتى وصلت إلى الفرنج
أمداد ضخمة من المال والرجال تحت قيادة « الكندهنرى »
Count Henry ، وأخبرهم أن الأمداد واصله إليهم يتلو بعضها
بعضاً ، ووصلهم كتاب من البابا يأمرهم بملازمة ما هم بصدده ،
ويعلمهم أنه قد أرسل إلى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير إلى نجدتهم

براً وبحراً ، ويعلمهم بوصول الأمداد إليهم ، فازدادوا قوة
وطمئناً . ولما تتابعت الأمداد عزموا على لقاء صلاح الدين ؛
ولكنهم ما كادوا يخرجون من خنادقهم ، ويقابلون جيش
صلاح الدين وكان على تمام الأهبة للقاءهم حتى فضلوا العودة إلى
تحصيناتهم ؛ ليعتصموا بها ، ولو أن المعركة دارت ، كما كان
المسلمون يريدون ، وكان صلاح الدين بارئاً معافى لكانت هي
المعركة الفاصلة .

ولقد أظهر أهل « عكا » كثيراً من ضروب الشجاعة
والصبر طول مدة الحصار ، ودافعوا عن بلدهم دفاع الأبطال ،
وأبادوا ما أعده الفرنج لمهاجمتهم من آلات القتال : عمل الفرنج
ثلاثة أبراج من الخشب عالية جداً ، طول كل برج منها في السماء
ستون ذراعاً ، وعملوا كل برج منها خمس طبقات ، كل طبقة
مملوءة من المقاتلة ، وأصلحوا الطرق لها ، وقدموها نحو مدينة
« عكا » ، وزحفوا بها ، فأشرفت على السور ، وظل القتال
بين الصليبيين وأهل « عكا » ثمانية أيام متتابة ، تقدم بعدها
شاب له خبرة بالكيمياء ، وألقى على هذه الأبراج مواد جعلت
النار تضطرم فيها ، وكان ذلك يوماً مشهوداً لم ير الناس مثله ،
وحمل ذلك الرجل إلى صلاح الدين ، فبذل له مكافأة جسيمة ،

فأبى الرجل أن يأخذ شيئا ، وقال : إنما عملته لله تعالى ،
ولا أريد الجزاء إلا منه .

واتخذ الصليبيون « من الآلات العجيبة والصنائع الذرية
ما هال الناظر إليه . . . فأحدثوا آله عظيمة تسمى : دبابة ، يدخل
تحتها من المقاتلة خلق عظيم ، ملبسة بصفائح الحديد . ولها من
تحتها عجل تحرك به من داخل ، وفيها المقاتلة ، حتى ينطح
بها السور ، ولها رأس عظيم يرقبة شديدة من حديد ، وهي
تسمى : كبشا ، ينطح بها السور بشدة عظيمة ؛ لأنه يجرها
خلق عظيم ، قهدهم بتكرار نطحها . وآلة أخرى ، وهي قبو
فيه رجال السحب كذلك ، إلا أن رأسها محدد على شكل السكة
التي يجرث بها ، ورأس البرج مدور ، وهذا يهدم بثقله ،
وتلك تهدم بجذتها وثقلها ، وهي تسمى : سنورا . وأعدوا في
البحر بطسة^(١) هائلة ، وضعوا فيها برجا بخرطوم إذا أرادوا
قلبه على السور انقلب بالحركات ، ويبقى طريقا إلى المكان
الذي ينقلب عليه ، تسمى عليه المقاتلة^(٢) .

وكان صلاح الدين ، برغم الحصار ، يرسل الميرة والذخائر

(١) البطسة : السفينة الكبيرة .

(٢) النوادر السلطانية ص ١٢٦ .

إلى « عكا » بطريق البحر ، وكثيراً ما اعترض الفرنج سبيل
سفنه الداخلة إلى الميناء .

وما إن أقبل الربيع سنة ٥٨٦ هـ حتى وصلت أمداد إلى
الفرنج في البحر ، وعلى رأس بعضها الملك فيليب ملك فرنسا ،
والملك ريتشارد ملك إنجلترا ، ويقول عنه ابن شداد (١) مؤرخ
هذه المعركة ومشاهدها : وهو شديد البأس بينهم ، عظيم
الشجاعة ، قوى الهمة ، له وقعات عظيمة ، وله جسارة على
الحرب ، وهو دون الفرنسيين عندهم في الملك والمنزلة ، ولكنه
أكثر مالاً منه ، وأشهر في الحرب والشجاعة .

ولما اكتمل جمع الفرنج أقبلوا بكل ما يملكون على مضايقة
« عكا » . مضايقة أضعفت من فيها ضعفاً عظيماً ، وجرى بين صلاح
الدين والفرنج معركة عظيمة ، وهو يطوف بين الجند بنفسه ،
وعيناه تذر فان الدمع ؛ وكلما نظر إلى « عكا » وما حل بها من
البلاء اشتد في الزحف وحث على القتال . ولكن الضعف كان
قد أنهك رجال المدينة ، فجاءت منهم رسالة يقولون فيها : « إنا قد
بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم ، ونحن في الغد إن

(١) النوادر السلطانية ص ١٤٤ .

لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ، ونسلم البلد ، ونشتري قانبا .
وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين ، وأنكى في قلوبهم .
وامام كثرة العدو الساحقة اضطر أهل « عكا » إلى أن
يصالحوه على الرغم من إنكار صلاح الدين الذي كان يريد
مواصلة القتال ، فسقط البلد في يد العدو يوم الجمعة ١٧ من
جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ هـ ؛ ولم يف ملك الإنجليز بما وعد به
أسرى المسلمين ، بل أحضرهم مكبلين بالحبال ، وحمل عليهم هو
وجنده حملة الرجل الواحد ، فقتلوهم طعنا بالسيوف .

وأجمع العدو أمره على المسير إلى بيت المقدس ، فجمع
السلطان أمراءه يستشيرهم كعادته ، وكان ممن حضر القاضى
ابن شداد ، فطلب منه صلاح الدين أن يبحث الحاضرين على
الجهاد ، فكان مما قاله : « إن النبي لما اشتد به الأمر بايعه
الصحابة على الموت فى لقاء العدو ، ونحن أولى من تأسى به ،
والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت » ؛
فاستحسن الجماعة ذلك ، ووافقوا عليه . ثم قال لهم صلاح
الدين : « اعلموا أنكم جنود الإسلام اليوم ومنعته ، وأتم تعلمون
أن دماء المسلمين وأموالهم وذرائعهم معلقة بدمكم ، وأن هذا
العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أتم ، فإن وليتم بأنفسكم

والعياذ بالله طوى البلاد طى السجل للكتاب ، وكان ذلك في
ذمتكم ؛ فإنكم أتم الذين تصديتم لهذا ، وأكلتم مال بيت المال ،
فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم ، والسلام .

وكان لهذا الحديث وكلام ابن شداد أكبر الأثر في نفوس
المجتمعين ، حتى قال بعضهم : « يا مولانا ، ليس لنا إلا رقابنا ،
وهي بين يديك ، والله لا يرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن
نموت » ، وأمن الحاضرون على كلامه ، وتأهبوا للقاء العدو ،
أشد الناس تلهفا على لقاءه .

ولم يلبث العدو بعد أن أقبل إلى بيت المقدس أن اختلف :
أيهاجم المدينة أم يرحل عنها ، وقر رأيه على الرحلة .

ثم أخذت الرسل تتردد في الصلح ، وكان العدو هو الذى
بدأ بطلب الحديث فيه ، وكان أول مدار من حديث بين الفريقين
أن قال الفرنج : « إنا قد طال بيننا القتال ، وقد قتل من الجانبين
الرجال الأبطال ، ونحن إنما جئنا لنصرة إفرنج الساحل ،
فاصلطحوا أتم وهم ، وكل منا يرجع إلى مكانه » . واجتمع ملك
الإنجليز بالملك العادل ، وأبدى له الرغبة فى الصلح ؛ فقال له
الملك العادل : أتم تطلبون الصلح ، ولا تذكرون مطلوبكم فيه ،
حتى أتوسط بينكم وبين أسلطان . وهنا بدأ ريتشارد يذكر

أعلى شروطه للصلح ، مظهرا صرامة وقوة ، إذ قال : « القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا ، وتنصرفوا إلى بلادكم » . ولم تكن هذه القاعدة بطبيعة الحال مما يقبله الملك العادل ، وأخشن له في الجواب ، وحجرت بينهما منافرة ، انصرفا بعدها على غير اتفاق . وترددت الرسل بين الفريقين ، وتخلل المفاوضات حروب ، استولى فيها صلاح الدين على يافا ، وكان يتربص كل فرصة يحارب فيها العدو ، ولكن الملل كان قد دب إلى عسكر الفريقين ، وكان ملك الإنجليز مصرا على أن تكون له « عسقلان » وأرسل يجرى السلطان بالنزول عنها ، وأنه إن وقع الصلح في هذه الأيام سار إلى بلاده ، ولا يحتاج أن يشقى ها هنا ؛ فأجابه السلطان إجابة المؤمن الواثق بقوله : « أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه ، وأما تشتيه ها هنا فلا بد منها ؛ لأنه قد استولى على هذه البلاد ، ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت بالضرورة ، كما تؤخذ أيضاً إذا أقام ، إن شاء الله تعالى . وإذا سهل عليه أن يشقى ها هنا ، ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين ، وهو شاب في عنفوان شبابه ، ووقت اقتناص لذاته ، أفلا يسهل على أن أشقى وأصيف ، وأنا في وسط بلادى ، وعندى أولادى وأهلى ، ويأتى إلى ما أريد ، وأنا رجل شيخ

قد كرهت لذات الدنيا ، وشبعت منها ، ورفضتها عنى . والعسكر الذى يكون عندى فى الشتاء غير العسكر الذى يكون عندى فى الصيف ؛ وأنا أعتقد أنى فى أعظم العبادات ، ولا أزال كذلك حتى يعطى الله النصر لمن يشاء .

ونزل « ريتشارد » على رأى صلاح الدين ، فعقد الصلح على أن يسود السلام ثلاث سنين من تاريخ التوقيع عليه ، وهو يوم الأربعاء ٢٢ من شعبان سنة ٥٨٨ هـ (٢ من سبتمبر ١١٩٢ م) . وبذلك انتهت الحرب الصليبية التى دارت فى عهد صلاح الدين ، بعد أن فقد فيها عدد ضخم من بنى الإنسان فى الشرق والغرب ، ونشرت لواء الأسى على آلاف الأسر ، وفقدت فيها ألمانيا واحداً من أعظم أباطرتها ، وأضاعت فيها إنجلترا وفرنسا زهرة شباب فرسانها ، ولم يكن لذلك كله من ثمن سوى امتلاك « عكا » . أمضى صلاح الدين معاهدة الصلح مكرها ؛ لما رآه فى الجند من الملل ، وكان يأمل أن يجدد قواه فى هذه المدة من السلم ؛ ليستخلص ما بقى فى يد الفرنج ؛ وبرغم طول الجهاد ومشقات القتال هذه المدة الطويلة فى حرب الفرنج ، وقف صلاح الدين لهم وقفات عنيفة حطمت آمالهم ، فلم يظفروا بغير امتلاك « عكا » ، واضطروا إلى النزول على شروطه .

مضى صلاح الدين بعد عقد الصلح إلى بيت المقدس . وأمر
 بإحكام سورته ، ثم ذهب إلى دمشق ، وفي طريقه إليها مر
 بالثغور الإسلامية ، وتعهد هذه البلاد ، وأمر بإحكامها .
 وأعلن السلطان رغبته في أداء فريضة الحج ، فألح عليه
 الأمراء ألا يفعل ، خوفاً من غدر الفرنج ؛ فنزل على رغبته ،
 مع شدة شوقه إليه ، وقد أرسل إليه القاضي الفاضل يقول له في
 رسالة : « إن الفرنج لم يخرجوا بعد من الشام ، ولا سلوا عن
 القدس ، ولا وثق بعهدهم في الصلح ، فلا يؤمن مع بقاء الفرنج
 على حالهم ، واقتراق عساكرنا ، وسفر سلاطيننا سفراً مقدرًا
 معلوماً مدة الغيبة فيه أن يسروا ليلة ، فيصبحوا القدس على غفلة
 فيدخلوا إليه ، والعياذ بالله ، ويفرط من يد الإسلام ، ويصير
 الحج كبيرة من الكبائر التي لا تغتفر ، والعزات التي لا تقال . »
 ولكن صلاح الدين انتهاز فرصة عودة الحجاج من مكة ،
 فخرج لاستقبالهم ، وكان محفلاً رهيباً تأثر منه السلطان وبكى ،
 وعاد فرض من يومه مرضاً حاداً ، بقي به ثمانية أيام ، وتوفي
 رحمه الله يوم الأربعاء ٢٧ من صفر سنة ٥٨٩ هـ (٤ من مارس
 سنة ١١٩٣ م) . وكان عمره سبعة وخمسين عاماً .

* * *

توفى صلاح الدين ، وقد حقق الجزء الأكبر من آماله في طرد الصليبيين من الشام ، اللهم إلا رقعة صغيرة تمتد من «صور» إلى «عكا» ، وكما كان يتخفى أن يلتقى بهم جميعاً إلى البحر ، بل إن آماله كانت أوسع من ذلك وأكبر ، قال ابن شداد في كتابه عن سيرة صلاح الدين : « سرنا . . . إلى الساحل طالبي عكا ، وكان الزمان شتاء ، والبحر هائجاً شديداً ، وموجه كالجبال ، كما قال تعالى ، وكنت حديث عهد برؤية البحر ، فعظم أمر البحر عندي ، حتى خيل لي أنني لو قيل لي : إن جزت في البحر ميلاً واحداً ملكتك الدنيا لما كنت أفعل . . . فبينما أنا في ذلك إذ التفت إلى رحمة الله وقال : « أما أحكى لك شيئاً في نفسي ؛ إنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد ، وأوصيت ، وودعت ، وركبت هذا البحر إلى جزائره ، واتبعتهم فيها . . . » فعظم وقع هذا الكلام عندي ، حيث ناقض ما كان خطر لي .

— ٤ —

وإلى جانب عناية صلاح الدين بحرب الفرنج وتطهير الشام منهم ، عنى بأمر الثقافة ونشرها في أرجاء بلاده .
ففي مصر لم تدع المدارس إلا في عهد صلاح الدين الذي

استخدم المدارس لنشر المذهب السني ، وكانت الدراسة العالمية
قبله تلقى في الأزهر وفي الجوامع وبيت الحكمة ، فلما جاء
صلاح الدين أنشأ المدارس في مصر والشام ، وكلما سمع بعالم
ممتاز زين له الحجى ، إلى بلاده ، وحقق له جميع رغباته . وكان
يفدق على المدرسين ، ويوسع الرزق على القائلين بشئون الثقافة
في الأمة ، حتى صارت أرزاق أرباب العمام إقطاعا وراتبا تتجاوز
مائتي ألف دينار ، وربما كانت ثلاثمائة ألف دينار .

ومن المدارس التي أنشأها صلاح الدين بمصر « المدرسة
الناصرية » بناها بجوار جامع عمرو بن العاص ، وهي أول
مدرسة أنشئت بمصر للسنيين ، وقد تم بناؤها سنة ٥٦٦ هـ ،
وكان في ذلك الحين وزيراً للعاضد الفاطمي ، فكان إنشاؤها
من أشد ما عمل على تقويض الدولة الفاطمية ، لأنها أنشئت
لفقه الشافعية ، تمهيداً لعودة مصر إلى المذهب السني .

ومع أن هذه المدرسة كانت الأولى فإنها لم تصل إلى مكانة
« المدرسة الصلاحية » التي بناها صلاح الدين بجوار قبة الإمام
الشافعي ليدرس فيها مذهبه ، ووكل أمر إنشائها إلى أحد رجاله
الذين كان يثق بهم ، فهض بيناء مدرسة لم تر البلاد مثلها من
قبل ، في سعة المساحة وضخامة البناء ، حتى كان يحيل لمن يطوف

بأرجائها أنها بلد مستقل ، ولم يرض عليها صلاح الدين بمال ، ثم وقف عليها ما ينهض بنفقاتها . ولعلها صارت بعد تمام بنائها سنة ٥٧٢ هـ أعظم مدرسة في العالم الإسلامي ، فكانت بذلك تسمى : تاج المدارس . وقد قام بالتدريس فيها جماعة من أعيان العلماء .

وبنى صلاح الدين أيضاً أول مدرسة للمالكية بمصر سنة ٥٦٦ هـ ، وكانت بجوار جامع عمرو بن العاص أيضاً ، وعرفت بالمدرسة القمحية ، لأنه كان من جملة ما وقفه عليها صلاح الدين ضيقة بالفيوم تغل قحاً كان يوزع على مدرسيها وطلبتها .

كما أنشأ في القاهرة أول مدرسة لدراسة مذهب أبي حنيفة سنة ٥٧٢ هـ ، عرفت بالمدرسة السيوفية ، لأن سوق السيوفية كان يومئذ عند بابها .

ونسب إلى صلاح الدين المدرسة الصلاحية بدمشق ، وهي التي أنشأها نور الدين بالقرب من البيارستان النوري^(١) ، ولعل سبب نسبتها إلى صلاح الدين أنه قام فيها بإصلاحات وزيادات استدعت هذه النسبة . وهذه المدرسة للشافعية ، وله بدمشق مدرسة للمالكية أيضاً^(٢) .

(١) المدارس في تاريخ المدارس ١ : ٣٣١ .

(٢) وفيات الأعيان ٢ : ٤٠٣ .

ولما استعاد صلاح الدين بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ ، نفذ فيه سياسته التي ترمي إلى نشر العلم ، وتزويد شعبه بالثقافة ، فأنشأ به مدرسة للشافعية سنة ٥٨٨ هـ ، كانت من أجل ما بناه من المدارس ، ووكل أمر التدريس فيها إلى القاضي بهاء الدين بن شداد أحد رجالات عصره في علوم الدين والتاريخ .

— ٥ —

وعنى صلاح الدين كذلك بالحياة الاجتماعية لشعبه ، فأنشأ المستشفيات ببعض كبريات المدن في مصر والشام .

وإنه مما لاشك فيه أن هذه الحروب التي خاضها صلاح الدين قد استنفذت جزءا كبيرا من دخل البلاد ، ولو أن الحياة كانت مستقرة ، ولم يكن الأعداء قد اغتصبوا البلاد ، واضطر صلاح الدين إلى استردادها - لأنفقت هذه الأموال الكثيرة في نهضة البلاد من الناحية الاجتماعية .

— ٦ —

وكان لصلاح الدين حب للأدب وحذب على أهله ، يغمرهم بعطاياه ، ويستهديهم شعرهم ، ويفدون إليه ينشدونه إلتاحهم ، أو يرسلون إليه بما نظموه ، وكان يستحسن الأشعار الجيدة

ويردها في مجالسه ، حتى قيل : إنه كثير ما كان ينشد
قول الشاعر :

وزارني طيفٌ من أهوى علي حذرٍ
من الوشاةِ وداعي الصبحِ قد هتفا
فكدتُ أوقظُ من حوْلي به فرحًا
وكاد يهتِكُ سترُ الحبِّ بي شغفا
ثمَّ انتبهتُ ، وآمالِي تحيّلُ لي

نيلُ المني ، فاستحالت غيْطتي أسفا^(١)

وقيل : إنه كان يعجبه قول ابن المنجم في خضاب الشيب وهو :

وما خضبَ النَّاسُ البياضَ لِقُبْحِهِ

وأقبحُ منه حين يظهرُ ناصِلُهُ^(٢)

ولكنه مات الشبابُ ، فسوِّدَتْ

على الرسمِ^(٣) من حُزنٍ عليه منازلُهُ^(٤)

(١) وفيات الأعيان ٢ : ٤٠٣ . (٢) نصل الشعر : خرج من الخضاب .

(٣) على الرسم : كالعادة والمألوف والمرسوم .

(٤) وفيات الأعيان ٢ : ٤٠٣ .

وذكر العماد الكاتب أن السلطان صلاح الدين في أول ملكه كتب إلى بعض أصحابه بدمشق هذين البيتين :

أيها الغائبون عنا وإن كنف
شمُّ لِقَلْبِي بِذِكْرِكُمْ حَيْرَانَا
إِنِّي مُذْ فَقَدْتُكُمْ لِأَرَاكُمْ
بِعُيُونِ الضَّمِيرِ عِنْدِي عِيَانَا (١)

وكان يضمن رسائله الشعر قال العماد : وكثرت كتب صلاح الدين إلى أصدقائه ، مبشرة بطيب أنبائه ، فمنها كتاب ضمنه هذا البيت :

ما كنتُ بالمنظور أقنع منكم
ولقد رضيت اليوم بالمسموع (٢)

وهذا الشعر الذي استحسنته أو أرسلته إلى بعض صحبه يدل على ذوق سليم ؛ لجودة معناه ، واستقامة عبارته .
وكثيراً ما كان يسمر بالحديث عن الشعر والشعراء ، وكان

(١) المصدر السابق نفسه . (٢) الروضتين ١ : ١٧٩ .

مغرما بديوان أسامة بن منقذ ، كما روى العماد^(١) ، وكان له محفوظ كبير من الشعر يردده في مناسباته ، وكان كتاب الحماسة من حفظه قالوا : لما مات توران شاه أخو صلاح الدين ، ووصل الخبر بذلك إلى السلطان ، حزن عليه حزنا شديدا ، وجعل يكثر إنشاد أبيات المرثي^(٢) . وكأنه يعبر بهذا الشعر المحفوظ عن أحزانه .

ومما أثر من عطاياهم للشعراء ما رواه ابن خلكان من أن بعض الشعراء أنشد صلاح الدين شعرا جاء فيه :

الله أكبرُ نال القوسَ باريها
ورام أسهمَ دينِ الله راميهـا
فكم لمصرٍ على الأمصارِ من شرفٍ
بالموسُفَينِ ، فهل أرضٌ تُدانيها
فبابن يعقُوبَ هزَّتْ جِيدَها طَرَبًا
وبابن أيُّوبَ هزَّتْ عِطْفَها تيهـا
قل للملوكِ تُخَلِّي عن ممالكها
فقد أتى آخِذُ الدُّنيا ومُعْطِيها

(١) الروضتين ١ : ٢٤٧ . (٢) المرجع السابق ٢ : ١٨ .

فأعطاه صلاح الدين ألف دينار (١) .
ومدحه سعادة الأعمى بقصيدة طائية أثابه عليها بألف دينار
كذلك (٢)

ومدحه أحمد بن علي بن أبي زنبور بقصيدة طويلة وصله
عليها بخمسمائة دينار (٣) .

وقال العماد في الحريرة : لما خيم السلطان بظاهر حمص قصده
المهذب بن أسعد بقصيدة أولها :

ما نام بمعدّ البين يستحلي الكرى

إلا ليطرّقه الخيال إذا سرى

فقال القاضي الفاضل لصلاح الدين : هذا الذي يقول :
« والشعر ما زال عند الترك متروكا » ؛ فمجل جأزته ،
لتكذيب قوله ؛ وتصديق ظنه ؛ فشرفه ، وجمع له بين الخلعة
والضية . وقد عنى الفاضل ما قاله المهذب في قصيدة مدح بها
الصلاح بن رزّيك ، وأولها : « أما كفاك تلافى في تلافيك » .
وفيهما :

(١) وفيات الأعيان ٢ : ٤٠٥ .

(٢) حريرة القصر ١ : ٧٨ .

(٣) بغية الوعاة ص ١٤٨ .

مَنْ أَرْجَى يَا كَرِيمَ الدَّهْرِ يَنْعَشِنِي
 جَدْوَاهُ ، إِنْ خَابَ سَعْيِي فِي رَجَائِكَ
 أَمْدَحُ التُّرْكَ أَبْغِي الْفَضْلَ عِنْدَهُمْ
 وَالشُّعْرُ مَا زَالَ عِنْدَ التُّرْكِ مَتْرُوكًا (١)

وهنا أقف وقفة قصيرة . أتبين فيها مقدار غرام صلاح الدين
 بالعروبة ، وأن يظهر بمظهر الملك العربي ، يحافظ على التقاليد
 المتوارثة عند ملوك العرب ، ويأبى أن يخل بمظهر منها ، فهو
 يشجع الشعر ، ويشيب الشعراء .

ويذكر العهاد الكاتب أن صلاح الدين كان يستهديه شعره
 ونثره (٢) . مما يدل على غرام بالأدب وحب لأهله . كما كان يعقد
 المجالس للاستماع إلى ما يقوله الشعراء ، كهذا المجلس الذي عقده
 بعد أن فتح بيت المقدس ، واستمع فيه إلى ما قاله الشعراء في
 هذا الفتح المبين (٣) .

وكان له ذوق ينقد به ما يعرض عليه من الشعر : كتب
 نشو الدولة أحمد بن ففاده أبياتا يدعو بها العهاد إلى دمشق ،

(١) الروضتين ١ : ٢٤٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٦ .

(٣) المرجع السابق ٢ : ٩٦ .

« وقد دخل أوان الشمس المهود ، وهو موسم دمشق
المشهود » أولها :

دعا النَّاسَ لِلذَّاتِ مَشْمَشُ جَلِّقِ
فقد أسرعوا من كُؤْلِ غَرْبٍ وَمَشْرِقِ
قال العماد : فعرضت أبياته على السلطان ، قال فما قلت
في جوابه ؟ فأنشدته .

هَامُوا نَسَابِقَ نَحْوِ مَشْمَشِ جَلِّقِ
وَتَمَّ كَمَا نَهَوَى عَلَى الْأَكْلِ نَلْتَقِي
بَدَتْ بَيْنَ أَوْرَاقِ الْفُصُونِ كَأَنَّهَا
كُرَاتُ نُضَارٍ فِي بَلْبِينِ مُطَرَّقِ (١)

قال : فلما أنشدت السلطان هذا البيت قال : تشبيه الورق
باللبين غير موافق ؛ فإنَّ الورق أخضر ؛ فقلت :

كُرَاتُ نُضَارٍ بِالزَّمْرِدِ مُحْدَقِ (٢)

فغير الشاعر المشبه به ليطابق المشبه .

(١) طرق الحديد : مدده ورقته .

(٢) الروضتين ٢ : ٢١٠ .

صلاح الدين بين شعراء عصره

كان صلاح الدين أعظم بطل في الحروب الصليبية
 نظراً بتقدير الشعراء وإعجابهم ، فأحاطوا به ،
 ينظمون أسباب مجده ، ويشيدون بوقائعه وجهاده ، ويسجلون
 كل ما قام به من حركات مباركة في سبيل مجد الإسلام ؛ فقد
 تضافر على رسم بطولته عدد كبير من شعراء عصره ، عرفت
 منهم زهاء خمسين شاعراً ، منهم المصري ، والشامي ، والعراقي (١) ،
 يقدمون إليه حيث هو مقيم في إحدى المدن ، فينشدونه شعرهم ؛
 قال العماد في الحريرة : كنت جالسا بين يدي الملك الناصر
 صلاح الدين بدمشق في دار العدل ، فحضر سعادة الضير ،
 (وهو من أهل حمص) ، ووقف ينشد هذه القصيدة في عاشر
 شعبان ، سنة إحدى وسبعين (وخمسمائة) :

حَيْتَكَ أَعْطَى الْقُدُودِ بَيَانَهَا .

لَمَّا انْتَبَتْ تَيْهًا عَلَى كُشْبَانِهَا

(١) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٤٣٤ . وارجع
 الى هذه الصفحة من الكتاب وما يليها لمعرفة أسماء هؤلاء الشعراء ، ومراجع شعرهم ،
 وصفحات هذه المراجع .

و بعد غزل القصيدة ووصف دمشق قال يصف صلاح الدين:
 سلطانه الملك ابن أيوب الذي
 كناه لاتنك عن هطلانه
 غيث يكر من الطي بصواعق
 ماء الردى يجري على نيرانه
 بصوارم اجفانه قعم العدى
 لا ما كساها القين من اجفانه (١)
 ملك إذا جليت عرائس ملكه
 رصعت فريد القدل في تيجانها
 وإذا جحافلُه أثرن سحائبها
 لمعت بروق النصر في أحضانها
 ويستمر سعادة في إنشاد قصيدته التي بلغ ما أورده العباد
 منها أربعة وسبعين بيتاً (٢).

(١) القين : الحداد . والاجفان : جمع جفن ، وهو : غد السيف .

(٢) خريدة القمر ١ : ٤٠٦ وما يليها .

وفي اليوم التالي قام ، وقد احتفل الحفل ، بحضور أهل
الفضل ، فأنشده :

لا يُقَدِّمُكَ مَا حَلَّوْا وَمَا عَقَدُوا
هَمُّ الذُّنَابِ ، وَأَنْتَ الضَّيِّقُ الْأَسَدُ
ويظلُّ في إلقاء قصيدته التي بلغت خمسة وستين بيتاً ،
يختمها بقوله :

فاسلَمْ ، وَجَيْشُكَ لَا يُشْتَى لَهُ عَاسِلَمْ
وَاسْعَدُ ، وَيَبْتَكَ لَا تَهْوَى لَهُ عُمْدُ
بِحَيْثُ مِنْ مِخْطَفٍ لَدُنِّ لَه طُنْبُ
وَحَيْثُ مِنْ مُرْهَفٍ عَضْبٍ لَهُ وَتَلْدُ (١)
وَحَيْثُ شَأْنُكَ سَامٍ مَالَهُ صَبَبُ
وَحَيْثُ شَأْنُكَ هَاوٍ مَالَهُ صَعْدُ (٢)

وروى العماد في الخريدة أيضاً (٣) أن البهاء السنجاري (وهو

(١) الطنب : جبل طويل يشد به سرادق البيت . والمرهف : السيف .
والعضب : القاطع .

(٢) خريدة القصر ١ : ٤١٢ .

(٣) ٢ : ٤٠٢ .

من الموصل) قام فأنشد الملك الناصر قصيدة في دار العدل
بدمشق سنة إحدى وسبعين (وخمسة) في شعبان منها :

جَرَدَتْ مِنْ فَتَكَاتِ لِحْظِكَ مُرْهَفًا

وَهَزَزَتْ مِنْ لَيْنِ الْقَوَامِ مُتَّقَفًا (١)

ومنها في وصف صلاح الدين :

وَجَرَى بِنَى الْأَمَلِ الطَّمُوحِ ، فَأَمَّ بِنَى

سُاطَانَ أَرْضِ اللَّهِ طُرًّا يُوسُفًا

النَّاهِبِ الْأَرْوَاحِ فِي طَلَبِ الْعَلَا

وَالْوَاهِبِ الْأَجَالِ فِي حَسَنِ الْوَفَا

مَوْلَى لَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ يُجْتَلَى

مَلَكٌ يُجَدِّدُ ، أَوْ مَا يَكُ يُصْطَفَى

مَلِكٌ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ جُنُودُهُ

وَالسَّعْدُ عِنْدَ رِكَابِهِ إِنْ أَوْجَفَ (٢)

(١) المثقف : الريح .

(٢) أوجف الفرس : جمعه يعدو عدوا سريعا .

والله ناصرُه على أعدائه

كتب القضاء له بذلك أحرفاً

وحينا يرد الشعراء إليه ، وهو في مخيمه ؛ فهذا مذهب
الدين عبد الله بن أسعد الموصلى يفد عليه ، وهو مخيم بالعاصي ،
عندما وصل إلى حمص ، وينشده في مدحه . وما قال فيه :

وما خَضَعَ الفَرَجُجَ لَدَيْكَ حَتَّى

رَأَوْا مَا لَا يُطَاقُ مِنَ الْكِفَاحِ

وما سَأَلُوكَ عَقْدَ الصُّلْحِ وَدًّا

وَلَكِنْ خَوْفَ مُعَلِمَةٍ رَدَّاحٍ (١)

مَلَّتْ بِلَادَهُمْ سَهْلًا وَحَزْنًا

أَسودا تَحْتَ غَابَاتِ الرِّمَاحِ (٢)

وقد يرسلون إليه بقصائدهم من غير أن ينتقلوا إليه ؛ فقد

(١) المعلمة : الكتبية التي تعلن عن نفسها في الحرب . والرداح :
الثقيلة الحرارة .

(٢) الروضتين ٢ : ١٦ و ١٧ .

ارسل إليه سبط بن التعاويذي بقصائده من بغداد^(١) ، وارسل
إليه من مصر أبو علي الحسن بن علي العراقي الجويني قصيدة منها :

يا مليكا أضحي الزمان يُنْجِجِ

هـ بلفظ المذلل المسكين

قَذَفَتْ أَهْلَهُمُ الْحُصُونُ إِلَى بَأْسِ

سِكِّ ، حَتَّى عَوَضَتْهُمْ بِالشُّجُونِ

وَأَرَاهِمُ رَبُّ السَّمَاءِ بِأَسْيَا

فِيكَ مَا لَمْ يَجُلْ لَهُمْ فِي ظُنُونِ

يا مليكا يَلْتَقِ الحُرُوبَ بِجَوْلِ اللَّـهِ

هـ مَسْتَعَصِمًا وَصَدَقَ اليَقِينِ

إِنَّ هَذَا الفَتْحَ المُبِينِ شِفَاءٌ

لِصَدُورٍ ، وَقِرَّةٌ لِلْعَيُونِ^(٢)

وكان يتولى عرض هذه القصائد عليه عند ورودها أحد

المقربين إليه .

(١) راجع ديوان سبط بن التعاويذي ص ١٨ و ٢٢ و ١٠٨ ، ووفيات الأعيان

٢ : ٤٠٣ .

(٢) الروضتين ٢ : ٩ .

وقد بقي لنا من الشعر الذي قيل في صلاح الدين مقدار ضخم ، وليس ذلك كل ما قيل فيه ، ولكن فقد منه قدر كبير ، تتبينه إذا علمنا أن ابن الساعاتي أنشأ في صلاح الدين قصائد طويلة كثيرة لم يبق من معظمها سوى غزلها ، والبيت الذي تخلص فيه من الغزل إلى المدح^(١) ، وأن القصيدة الطويلة قد يبق منها بيت أو بيتان ، فهذا على بن المبارك يمدح صلاح الدين بقصيدة أورد منها معجم الأدباء مطلعها ، وهو :

ألا حييا بالرتين المعالم

وإن كنَّ قد أصبحن دُرِّسًا طواسمًا^(٢)

وأورد من مديحها قوله :

إذا كانت الأعداء فعلا مضارعا

أصار مواضيه الحروف الجوازما^(٣)

وهذه قصيدة طويلة نسبها ابن خلكان إلى ابن الشعنة

(١) راجع ديوان ابن الساعاتي ١ : ٦١ و ٦٢ و ٦٣ و ٦٦ و ٦٧ و ٦٨ و ٧٠ و ٧١ و ٧٣ و ٧٥ و ٧٦ و ٧٧ .

(٢) الرتتين : مكان . والرقمة : الروضة أو جانب الوادي . والدرس : جمع دارس ، وهو المحو . والطواسم : جمع طاسم وهو المنطمس .

(٣) معجم الأدباء ١٤ : ١١٠ والمراضى : السيوف القاطعة .

الموصلى . وذكر ان عدة آياتها مائة وثلاثة عشر بيتاً . ومع ذلك لم يبق لنا من هذه القصيدة سوى مطلعها ، وهو :

سَلَامٌ مَشُوقٍ قَدْ بَرَاهُ التَّشَوُّقُ
عَلَى جِسْرَةِ الحَيِّ الَّذِينَ تَفَرَّقُوا

وسوى بيتين كانا سائرين وقت إنشأهما ، وهما :

وَإِنِّي أَسْرُؤُ أَحْبَبْتُكُمْ لِمَكَارِمِ
سَمِعْتُ بِهَا ، وَالْأُذُنُ كَالْعَيْنِ تَعْشَقُ

وَقَالَتْ لِي الْآمَالُ : إِنْ كُنْتَ لَاحِقًا

بِأَبْنَاءِ أَيُّوبَ فَأَنْتَ الْمَوْقُ

وقد يكون للقصيدة حظ أفضل ، فيبقى خمسة وعشرون بيتاً ، من مائة واثني وخمسين بيتاً ، كالقدسية الكبرى للحكيم أبي الفضل ، وهي التي أولها :

تَصَارِيْفُ دَهْرٍ أَعْرَبْتُ لِمَنْ اهْتَدَى

وَبَسْطَةُ أَمْرِ أَعْرَبْتُ مَنْ تَمَرَّدَا

لِسُرْعَةٍ فَتَنَحِ الْقُدْسِ سِرًّا مُغَيَّبًا

وفي صَرْعَةِ الْإِفْرَنْجِ مُعْتَبَرَةً (١) بدا

ويذكر التاريخ أن شعراء مدحوه من غير أن يروى من مدحهم شيئاً (٢).

وبعد فقد سجل الشعر كثيراً من أحوال صلاح الدين ،
اشترك في الحديث عنها معظم شعراء عصره ؛ وهانحن أولاء
نعرض بعض ما ورد من هذا الشعر .

— ١ —

سجل الشعر خطى صلاح الدين منذ وقت مبكر ، وربما
كان من اسباب ذلك أنه كان رجلاً مرموقاً منذ الحداثة ،
وأنه كان يؤدي واجبه فيما يوكل إليه من الأمور كما ينبغي أن
يكون الأداء ، وأنه كان ذا خلق نبيل يجذب الناس إليه ،
ويدفعهم إلى حبه وتقديره . وقد حفظ التاريخ شعراً قيل فيه
عندما ولي شحنة دمشق (٣) ، فقال العرقلة يهنئه :

(١) المعتبر : العظة .

(٢) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٤٣٨ .

(٣) الشحنة بالكسر : من فيه الكفاية لضبط البلد من جهة السلطان .

وهو يشبه مدير الأمن العام .

لُصُوصَ الشَّامِ ، تَوَبُوا مِنْ ذُنُوبِ
تَكْفُرُهَا الْعُقُوبَةُ وَالصَّفَادُ (١)

لَئِنْ كَانَ الْفَسَادُ لَكُمْ صَاحِبًا
فَمَوْلَايَ الصَّالِحُ لَكُمْ فَسَادٌ
وَهَنَاءٌ بِقَصِيدَةِ أُخْرَى يَقُولُ فِيهَا :

رَوَيْدَ كُمْ يَا لُصُوصَ الشَّامِ
م ، إِيَّيْكُمْ نَاصِحٌ فِي مَقَالِي
وَإِيَّاكُمْ وَسَمِيَّ النَّبِيِّ
س : يَوْسُفَ رَبِّ الْحَيِّجِيِّ وَالْجَمَالِ
فَذَاكَ مُقَطَّعُ أَيْدِي النَّسَا

، وهذا مقطّعُ أيدي الرّجالِ
وهذا الشعر الذي يهنيء صلاح الدين بمنصبه الجديد ينذر
أخطر المتمردين على الأمن ، ويقر لصلاح الدين بالمقدرة على
الضرب على أيدي أولئك المفسدين ، وبالجزم في معاملتهم ،
وبالعقل المؤدى إلى حسن تصريف الأمور .

(١) الصَّفَادُ : ما يوثق به الأسير : القيد .

كأرفع العرّقلةُ يده إلى السماء يطلب من الله أن يلي صلاح الدين
أمر مصر عندما جاء إليها مع عمه أسد الدين شيركوه ، فيقول :
رَبُّ كَمَا مَلَكَتْهَا يُوسُفُ الصَّ

لِدَيْقٍ مِنْ أَوْلَادِ يَعْقُوبِ
يَمْلِكُهَا فِي عَصْرِنَا يُوسُفُ الصَّ

سَادِقُ مِنْ أَوْلَادِ أَيُّوبِ
مَنْ لَمْ يَزَلْ ضَرَّابَ هَامِ الْعَدِيِّ

حَقًّا ، وَضَرَّابِ الْعِرَاقِيِّ
فَلَمَّا عَادَ إِلَى دِمَشْقِ حَتَّى الْعَرَّقَلَةُ عَلَى الْعُودِ إِلَيْهَا ، فَقَالَ :

إِلَى كَمِذَا التَّوْنِي فِي دِمَشْقِ
وَقَدْ جَاءَتْكُمْ مِصْرٌ تَهَادَى
عَرُوسٌ بَعْلُهُمْ أَسَدٌ هَزَبَرٌ

يَصِيدُ الْمُعْتَدِينَ ، وَلَنْ يُصَادَا
وَيَسْتَدُّ أَمَلَ الشَّعْرَاءِ فِي أَنْ يَسْتَقِرَّ صِلَاحُ الدِّينِ بِمِصْرَ ،

ويجتمع فيها شمله بأبيه وإخوته ؛ فيقول العماد الكاتب لنجم الدين
أيوب والد صلاح الدين :

أخوك وابنك صدقاً منهما اعتصما
بالله ، والنصرُ وعدٌ غيرُ مكذوبِ
هما همامانِ في يومئِ وغىٍّ وقوى
تعودوا ضربُ هامٍ أو عراقيبِ
غداً يَشْبَانِ في الكفَّارِ نارِ وغىٍّ
بلفحها يصبِحُ الشَّبَانُ كالشَّيبِ
بملكِ مصرٍ ونصرِ المؤمنينِ غداً
تخطى النُّفوسُ بتأنيسٍ وتطبيبِ
ويستقرُّ بمصرِ يوسفٍ ، وبه
تقرُّ بعدَ التَّنَائِي عَيْنُ يَعْقُوبِ
ويلتقي يوسفٌ فيها بإخوته

واللهُ يجمعهم من غيرِ تَثْرِيْبِ (١)

ولست أدري أهو صوت القدر الذي جعل الشعر يؤمل
في أن يستقر صلاح الدين بمصر دون عمه شيركوه ، أم أن الأمر
لا يعدو أن يكون الشعر يتحدث إلى والد الصلاح . ولعله بذلك

(١) التثريب : النوم والتعبير بالذنب .

كان يسجل أمنية تدور في نفس نجم الدين ، وربما لم تكن هذه
الأمنية على الوجه الذي انتهت إليه .

أما الأحداث التي صاحبت قدومه إلى مصر ، وعودته منها ،
ولقائه للفرنج ، وهزيمتهم أمامه ، وحصاره في الإسكندرية ،
وخداع شاور له فيسجلها العماد في قوله :

لاذبالتيمل شاور مثل فرعو

ن ، فذلّ اللّاجي ، وعزّ العُبورُ

شارك المشركين نعيًا ، وقدمًا

شاركتها قريظة والنضيرُ

والذي يدعي الإمامة بالقيا

هيرة ارتاع أنه مقهور

وبنو الهمفري هانوا ، ففروا

ومن الأسد كل كلب فرورُ

إنما كان للكلاب عوالة

حيثما كان للأسود زئيرُ

وفيليبٌ عند القِرَارِ سَلِيبٌ
فهو بالرَّعْبِ مطلقٌ مأسورٌ

وحميتَ الإسكندرِيَّةَ عنهم
ورحى مَنْ بها عليهم تدورُ
حاصروها ، وما الذي بان من ذَبِّ

ك عنها وحفظها محصورٌ

كحصار الأحزابِ طيبةً قدما

ونبيُّ الهُدَى بها منصورٌ

فاشكر الله حيث أولاك نصراً

فهو نِعْمَ المولى ونعم النصيرُ

والشعر يصور التيارات التي كانت تعترض صلاح الدين
وتقف في وجهه : من وزير مصرى لا يجد غضاضة في الاستعانة
بالفرنج والاستنصار بهم إذا دعا الأمر ، ومن إفرنج طامحين
إلى ملك مصر ، ينتهزون كل فرصة للوصول إلى ذلك الهدف ،
ومن خلافة تخاف الوزير والفرنج وصلاح الدين جميعاً .

فلما تم لصالح الدين الانتصار على شاور والفرنج أرسل إليه
أسامة بن منقذ قصيدة أولها : « سلم على مصر ، لاربع بندي
سلم » ، وفيها يقول :

النَّاصِرُ الْمَلِكُ الْمُوفِي بَدَمَّتِهِ

وَمَنْ نَدَى كَفَّهُ يُغْنِي عَنِ الدِّيمِ (١)

وَمَنْ إِذَا جَرَّدَ الْبَيْضَ الصَّوَارِمَ فِي الْ-

بِهِجَاءِ أَعْمَدِهَا فِي التَّبْيِضِ وَالْقَمَمِ

وَرَدَّ طَاغِيَةَ الْإِفْرَنْجِ يَحْسَبُ مَا

رَجَاهُ مِنْ مَلِكٍ مِصْرِيٍّ كَانَ فِي الْحَلْمِ

وَلِي ، وَرَاحَتُهُ صِفْرٌ (٢) وَقَدْ مَلَيْتُ

بَعْدَ الطَّمَاعَةِ مِنْ يَأْسٍ وَمِنْ نَدَمِ

يُصَعَّدُونَ عَلَى مَا فَاتَهُمْ نَفْسًا

لَوْ لَفَّحَ الْبَحْرُ أَخْضَى الْمَوْجِ كَالْحَمَمِ (٣)

(١) الدِّيم : جمع ديمة ، وهي المطر يدوم في سكون .

(٢) صِفْر : خالية .

(٣) صَعَدَ نَفْسَهُ : تنفس تنفساً محدوداً . وَالْحَمَم : جمع حممة ، كرتبية ،

وهي ما أحرق من خشب ومبوه .

وفي السَّلامَةِ ، لولا جهلهم ، ظَفَرٌ

لَمَنْ أَرَادَ نِزَالَ الْأَسَدِ فِي الْأَجْمِ (١)

وهو هنا يصور ما أصاب الفرنج من خيبة أمل عندما أخفقوا في الاستيلاء على مصر ، وتبددت آمالهم وصارت أحلاما ، ويصور الشعر يأسهم وندمهم والزفرات الحرى يصعدونها حزنا وأسى .

كما حدثه أسامة في قصيدة أخرى عن انتصاره على شاور الذي كاد يضع البلاد بين أيدي الفرنج تحقيقا لأطماعه ، فقال له :

أَقْتَمَ عَمُودَ الدِّينِ حِينَ أَمَالِهِ

لَطَاغِي الْفَرَنْجِ الْعُتْمِ طَاغِي بَنِي سَعْدِ (٢)

أَفَدْتَ بِمَا قَدَّمْتَ مُلْكَ مَخْلُودًا

وَذِكْرًا مَدَى الْأَيَّامِ يُقَرَّنُ بِالْحَمْدِ

وَذِكْرًا فِي الْأَفَاقِ يَسْرِي كَأَنَّهُ الصَّبَبُ

سَبَّاحٌ لَهُ نَشْرُ الْأُلُوتِ وَالنَّدَى (٣)

(١) الأجم : جمع أجمة ، وهي مسكن الأسد .

(٢) العتم : جمع عتم ، وهو الذي لا يفصح شيئاً . وطاغى بنو سعد هو : شاور .

(٣) الألوة والنه : عودان يتبختر بهما .

مكتبة
الملك
الفاهد

والبيت الأخير يدل على ما كان لهذه الأعمال التي قام بها
صلاح الدين من ذكر مندو في أرجاء العالم الإسلامي يومئذ .
وقد أحس الشعراء بأن في انتصار صلاح الدين على شاور
بناء ملك دائم في مصر ، ولم يعبا الشعر بالخليفة الفاطمي وبقائه
أو موته ، مما ينبئ بضالة شأنه ، وضعف سلطانه ؛ وذلك حق
لا مرية فيه .

فلما ولي صلاح الدين وزارة العاضد هناك عمارة العيني تهنئة
يبدو فيها أمل الشاعر في أن يظل مبقيا على الخلافة الفاطمية ،
فقد عدد ما أثره في نصرته الخليفة الفاطمي ، ودعاه بابن النبي ،
وصور ما كانت البلاد تعانيه من الفرنج ، وذلك إذ يقول
مخاطبا صلاح الدين :

لك الحسبُ الباقى على عَقَبِ الدَّهْرِ
بل الشَّرْفُ الرَّاقِي إلى قِمَّةِ النَّسْرِ^(١)
كذا فليكن سعيُ الملوكِ إذا سعت
بها الهممُ العُلَيَّا إلى شرفِ الدِّكْرِ

(١) النسرة : كوكب في السماء .

نهضتم بأعباء الوزارة نهضة
 أقلتم بها الأقدام من زلة العثر
 كسفتكم عن الإقليم نعمته ، كما
 كسفتكم بأنوار الغنى ظلمة الفقر
 حميتكم من الإفراج سرب خلافة
 جريتم لها مجرى الأمان من الدعر
 ولما استغاث ابن النبي بنصركم
 ودائرة الأنصار أضيق من شبر
 جلبتم إليه النصر أوسا وخزرجا
 وما اشتقت الأنصار إلا من النصر
 كتائب في جيرون (١) منها أو آخره
 وأولها بالنيل من شاطئ مصر
 طلعت فاطمتكم كواكب نصرية
 أضاعت ، وكان الدين ليلاً بلا فجر

(١) جيرون : دمشق .

أخذتم على الإفرنج كلَّ ثنية
وقلتم لأيدى الخيل : مرى على مرى^(١)
لئن نصبوا في البرّ جسراً فإنكم
عبرتم ببحرٍ من حديدٍ على الجسر
طريقاً تقارعتم عليها مع العدى
ففرتم بها، والصخرُ يُقرعُ بالصخرِ
يدٌ لا يقومُ المسلمون بشكرها
لكم آلُ أيوبٍ إلى آخرِ الدهرِ
بكم آمنَ الرحمنُ أعظمَ يثربِ
وأمنَ أركانَ الشّيةِ والحجرِ
ولورجعتُ مصرٌ إلى الكفرِ لانطوى

بساطُ الهدى من ساحه البرّ والبحرِ
وهذه القصيدة ناطقة بأشياء كثيرة تعدّ صدّى للأحداث
التاريخية في تلك الحقبة من الزمان ؛ فقد صورت هذا القلق

(١) هو ملك بيت المقدس Amary

والاضطراب الذي كان يسود مصر يومئذ من جراء أطماع
الوزراء ، والحروب الدائرة على أرضها نتيجة لهذه الأطماع ، فلم
يكن ثمة استقرار في مصر أو أمن يعيد الطمأنينة إلى النفوس ،
وقد أجاد الشاعر في تصوير ذلك بالغمّة ترين على القلوب ،
وتجعل جو الإقليم المصري قلقاً مضطرباً .

وصورت هذا الخوف الذي ملأ على الخليفة قلبه ، حتى جاء
صلاح الدين فبدل هذا الخوف أمناً . وصورت ضعف أنصار
الخليفة في مصر ، ضعفا دفعه إلى التماس النصر من جيش غير
جيشه ، وإنسان لا يدين بعقيدته ، وهو نور الدين محمود ، كما صورت
ضخامة جيش صلاح الدين ، فقد جعل آخره في دمشق وأوله
بشواطئ النيل ، وصورت هذا النزاع والتسابق على أخذ مصر
وامتلاكها بين نور الدين محمود والفرنج ، وفوز صلاح الدين
بهذا الجزء العزيز من الوطن الإسلامي :

طريقٌ تقارعتُم عليها مع العدى

ففرزتمُ بها ، والصَّخْرُ يُقْرَعُ بالصَّخْرِ

وصورت مكانة مصر في العالم الإسلامي يومئذ ، ونظرة
الفرنج إليها ، وإيمانهم بأنهم إذا ملكوها استطاعوا أن يضعوا

أيديهم على باقى أجزاء العالم الإسلامى ؛ لأنها منه مكان القلب
الناضب ، فلم يكن عمارة مغاليا يوم قال :
ولورجعتُ مصرُ إلى الكُفْرِ لانطوى

بِساطُ الهدى من ساحةِ البرِّ والبَحْرِ
وحيث رأى فى أمن مصر أمنا لمكة والمدينة .

والقصيدة بعدئذ تهنىء بالوزارة ، وتتحدث عن ابن النبي ،
وكأنه حين وصف الخليفة بذلك كان يريد من صلاح الدين
ألا يسير إلى أبعد من خطوة الوزارة ، وأن يبقى الخليفة مترعا
على عرشه ؛ لأن هوى عمارة كان مع الدولة الفاطمية .
وقد كان أسلوب عمارة فى قصيدته قويا ، وإن كنا نأخذ
عليه كسف أنوار الغنى ظلمة الفقر ؛ لأن المعهود أن تكسف
الظلمة النور ، لا أن يكسف النور الظلام .

وكان لوزارة صلاح الدين أولا ، ثم سقوط الخلافة الفاطمية
وخلوص مصر لصلاح الدين ، واسم يوسف - كان لذلك كله
أثره فى الشعر ؛ كتب العماد الكاتب يهنئه :

أهني الملك التنا صر بالملك وبالتنصر
وما مهَّد من بُنيا ن دين الحقِّ فى مِصرِ

وما أسداه من برِّ بلا عدِّ ، ولا حصر
 وما أحياه من عدلٍ وما خفَّفَ من إضْرٍ (١)
 وإعلاء سنِّ الشُّنَّةِ في مجبوحَةِ القَصْرِ
 قد استولى على مصرٍ بحقِّ يوسفُ العصر
 وأحيا سنَّةَ الإحسا نِ في البدو ، وفي الحضر
 فاما قطع صلاح الدين الخطبة للعاقد الفاطمي ، وخطب
 للمستضيء العباسي ، نظم العباد قصيدة مشتملة على الخطبة بمصر ،
 أولها :

قد خطبنا للمستضيء بمصر

نائب المصطفى إمام العصر

وخذلنا لنصرة العَضد (٢) العا

ضد ، والقاصر الذي بالقصر

وأشعنا بها شعار بني العبيد

اس ، فاستبشرت وجوه النَّصْر

(١) الاصر : الثقل . (٢) أراد بالعضد : عضد الدين بن رئيس
الرؤساء وزير بغداد . قال العباد : ونصرة وزير الخلافة كنصرته .

وتركنا الدعيّ يدعى ثبورا^(١)

وهو بالذللّ تحت حجرٍ وحصرٍ

وتباهت منابر الدين بالخطـ

سبةٍ للهاشميّ في أرضِ مصرٍ

ولدينا تضاعفت نعم الله

هـ ، وجأت عن كلِّ عدوٍّ وحصرٍ

فاغتدى الدينُ ثابت الركن في مهـ

رَ محوطَ الجحيمِ مَصُونِ الشَّعْرِ

عرف الحقّ أهلُ مصرَ ، وكانوا

قبلةً بين منكرٍ ومُقرِّ

والذي يدعى الإمامةً بالقـ

هرةٍ انحطّ في حضيضِ القهرِ

خانه الدهرُ في مناه ، ولا يبطـ

معُ ذو اللبِّ في وفاءِ الدهرِ

(١) الثبور : المهلاك والخسران .

ما يُقَامُ الإمامُ إلا بحقِّ
ما تُحَازُ الحسَناءُ إلا بمهرِ

خلفاءُ الهُدَى سراةُ بنى العَبِ

سِ ، والطَّيِّبُونَ أهلُ الطَّهْرِ

بِهِمُ الدِّينُ ظافِرٌ مستقيمٌ

ظَاهِرٌ قوَّةً قَرِيَّ الظَّنِّ

كشموس الضحى ، كمثل بدور التَّ

مِّ ، كالشَّجَبِ ، كالنَّجْمِ الزُّهْرِ

قد بلغنا بالصَّبرِ كلَّ مرادٍ

وَبَلُوغُ المرادِ عُنُقِي الصَّبرِ

دام نصرُ الهُدَى بملكِ بنى العَبِّ

سِ ، حتَّى يَقومَ يومُ الحِشْرِ

والقصيدة مفسحة عن شماتة بالخليفة الفاطمي ، وإن كان

الشاعر قد لمس كبد الحقيقة عندما جعل الخليفة الفاطمي قاصرا

تحت الحجر والحصر ، وهو لذلك مستضعف ذليل .

والقصيدة مفسحة أيضاً عما كان للخلافة العباسية يومئذ من
سلطة روحية على النفوس . برغم ما أصابها من تدهور سياسى ،
وضعف نفوذ وسلطان ؛ فأنت ترى الشاعر يتحدث عن المنابر
ومباهاتها بالخطبة للهاشمى ، ويعدّ عودة الخطبة إليه تثبيتاً لأركان
الدين فى مصر ، واعترافاً من أهل مصر بالحق ، ثم يصف خلفاء
بنى العباس بأهم خلفاء الهدى وأهم الطيّبون أهل الطهر ، وأن
الدين ظافر قوى بهم ، وهم كالشموس ، والبدور ، والنجوم ،
والسحب ، ثم يدعو أن يظلوا خلفاء إلى يوم الحشر .

أليس فى ذلك كله ما يوحى إلينا بأن وهن السلطان السياسى
للخلافة العباسية لم يوهن سلطانها الروحى على النفوس ؟ أو ليس
فى ذلك دليل على أن النفوس جميعاً كانت تصبو إلى وحدة تجمعه
القلوب وتؤلف الشتات ؟

وفى القصيدة إشارة أرجو أن أنبه إليها، تلك هى أنه نبّ
إلى الصّبر الذى بلغ بهم إلى ما يريدونه من الآمال ، وأغلب الظن
أنه يشير بذلك إلى ما كان من رغبة جامحة فى تغيير الخطبة ،
ولكن صلاح الدين تريث وانتظر ، حتى مهد للأمر ، ثم قطع
الخطبة عن الخليفة الفاطمى .

فلما مات العاضد الخليفة الفاطمى قال العماد أيضاً :

توفى العاصدُ الدَّعِيَّ ، فَمَا
يفتحُ ذو بدعةٍ بمصرَ فَمَا
وعصرُ فرعونها انقضى وغدا
يوسفها في الأمورِ مُحْتَكِمًا
وانطفأت جمرَةُ الغواةِ ، وقد
باخ من الشركِ كلُّ ما اضطرما (١)
وصار شملُ الصَّلاحِ ملتئمًا
بها ، وعقدُ السِّدادِ منتظما
لما غدا معلنا شعارَ بني الـ
عبَّاسِ حقًّا ، والباطلُ اکتما
وبات داعي التَّوحيدِ منتصرا
ومن دُعاةِ الإِشراكِ منتقما
وعاد بالمستضىءِ ممتهدا
بناء حقِّ قد كان منههدما

(١) باخ : سكن وهذا . واضطرم : التهب .

واعتمت الدولة التي اضطهدت

وانتصر الدين بعدما اهتصما

واهتز عطف الإسلام من جزل

وافتر نعر الإيمان ، وابتسما

وروح هذه القصيدة كروح سابقتها التي وصفناها .

أما يوسف ، وهو اسم صلاح الدين ، فقد دعا إلى الأذهان اسم يوسف الصديق النبي الذي وزر لأحد الفراعنة ، ونزلت قصته في القرآن الكريم .

وكان من وجوه الشبه بينهما أن قدم إلى يوسف صلاح الدين وهو بمصر والده وإخوته ، كما قدم على يوسف الصديق والده وإخوته كذلك ، ومما قيل في هذا الشبه آيات لهارة يقول فيها :

صحت به مصره ، وكانت قبله

تشكو سقاماً لم يعن بطبيب

عجبا لمجزاة أتت في عصره

والدهر ولأد لِكُلِّ عجيب

رَدَّ الإِلَهِ بِهِ قَضِيَّةَ يَوْسُفَ

نَسَقًا عَلَى ضَرْبٍ مِنَ التَّقْرِيبِ

جَاءَتْهُ إِخْوَتُهُ وَوَالِدُهُ إِلَى

مِصْرٍ عَلَى التَّدْرِيجِ وَالتَّرْتِيبِ

فَاسْعَدَ بِأَكْرَمِ قَادِمٍ ، وَبِدَوْلَةٍ

قَدْ سَاعَدَتْكَ رِيَاحُهَا بِهَبُوبِ

وَقَالَ فِي هَذَا الْمَعْنَى الْحَكِيمُ عَبْدِ الْمَنَعِمِ الْجَلِيمَانِيُّ :

فِي مَشْرِقِ الْمَجْدِ نَجْمُ الدِّينِ مَطْلَعُهُ

وَكَلَّ أَبْنَاءَهُ شُهْبٌ ، فَلَا أَفْلَوا (١)

جَاءُوا كَيْعُوقَ وَالْأَسْبَاطِ ، إِذْ وَرَدُوا

عَلَى الْعَزِيزِ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ وَاشْتَمَلُوا

لَكِنَّ يَوْسُفَ هَذَا جَاءَ إِخْوَتُهُ

وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ نَزْعٌ ، وَلَا زَمَلٌ

(١) أفل النجم : غرب .



وَمَثَلُوا أَرْضَ مِصْرَ فِي سَمَائِهِمْ

ومثلها لرجالٍ مثلهم نزل (١)

وعماره قد جعل القصة تعود على ضرب من التقريب ،
أما الجلياني فقد أوضح الفرق بين القصتين ، إذ أقبل إخوة
صلاح الدين ولم يكن بينهم وبين أخيه من قبل غل^ه ولا حقد ،
على العكس من إخوة يوسف الصديق .

ووازن عماره مرّة أخرى بين اليوسفين فقال :

ياشبيهه الصّدّيق عدلاً وحُسنًا

وسميًا حكاه معني ومغني

هذه مصرُ يوسفٍ حلّ فيها

يوسفٌ مالكا ، وما حلّ سجنًا

ولكننا أخذ على عماره أنه يشبه صلاح الدين يوسف
ابن يعقوب في العدل والحسن ، وليس العدل من بين الصفا
التي شهر بها يوسف الصديق ، ولكنه شهر بحسن تدبير المال
حتى أتقذ مصر من سنيها المجذبة العجاف ؛ وليس الحسن

(١) النزل : المثل .

ما يمدح به أبطال الرجال ؛ كما مدحه بأنه يشبهه في الاسم ،
وليس ذلك مما يوجب المدح والثناء ، ولا في أنه أشبهه في أنه
مقيم بمصر .

كما دفع الاسم المتحد بين ابن أيوب وابن يعقوب - العباد
إلى الخطأ في زعمه أن مصر قد صبت إلى عصر يوسف ، إذ قال :

ولما صَبَّتْ مِصْرُ إِلَى حُكْمِ يَوْسُفَ

أعاد إليها الله يوسف والعصر

فأجرى بها من راحتيه بجوده

بحارا ، فسماها الوري أملا عشر

فلم يرد الله إلى مصر عصر يوسف المجدب الذي كان كثير
التقدير والتقدير ، لا عصر أفاض فيه الجود الذي سماه العباد بحارا .
فإذا مضى صلاح الدين إلى الشام يريد أن يوحد مصر ،
بعد وفاة نور الدين محمود ؛ لكي يتهيأ له استرداد فلسطين
المنقضية ، فقد أوقع الله في قلبه بعد أن صفت له مصر أن الله
أراد بذلك أن يهيء له فتح الساحل ، كما تحدث بذلك
صلاح الدين ، وأخذ دمشق - قال في ذلك وحيش الأسد
قصيدة أولها :

قد جاءك النصرُ والتّوفيقُ، فاصطحبا
 فكنْ لأضغافِ هذا النّصرِ مرتقباً
 لله أنتَ، صلاحِ الدّينِ، مِنْ أسدٍ
 أدنى فريسته الأيّامُ إن وثباً
 رأيتَ جلق^(١) نغرا لا نظير له
 فجتّها عامراً منها الذي خرّبا
 نادتك بالذلِّ لتسا قلّ ناصرها
 وأزمع الخلقُ مِنْ أوطانها هرباً
 أحييتها مثل ما أحييت مصرَ، فقد
 أعدتَ مِنْ عدِّها ما كان قد ذهباً
 هذا الذي نصرَ الإسلامَ، فاتّصحت
 سبيله، وأهان الكفرَ والصُّلباً
 ويومِ شاورَ، والإيمانُ قد هُزمتْ
 جيوشُهُ، كان فيه الجحفلُ اللّجيباً

(١) جلق : دمشق .

أَبَتْ لَهُ الضَّمِيمَ نَفْسَهُ حُرَّةً وَيَدَهُ

فَعَالَةً ، وَفَوَادُ قَطُّ مَا وَجَبَ (١)

بِسْتَكْرَ الْمَدْحِ يُتَلَى فِي مَكَارِمِهِ

زُهْدًا ، وَيَسْتَصْغُرُ الدُّنْيَا إِذَا وَهَبًا

وَيَوْمٌ دَمِياطَ وَالْإِسْكَندَرِيَّةَ قَدْ

أَصَارَهُ مِثْلًا فِي الْأَرْضِ قَدْ ضُرِبَ بَأْ

وَالشَّامُ لَوْلَمْ يَدَارِكْ أَهْلَهُ أَنْدَرَسَتْ

أَثَارُهُ ، وَعَفَّتْ آيَاتُهُ حَقَبًا (٢)

ونظرة إلى البيت الرابع من هذه القصيدة ربما دلت على

ما ساد دمشق من اضطراب بعد موت نور الدين محمود .

ولقد جاء صلاح الدين إلى دمشق ومعه تاريخ مجيد تنفتح

إليه قلوب الرعية في دمشق ، فقد انتصر على الفرنج ، وحال بينهم

وبين استيلائهم على مصر ، كما ردهم عن دمياط عندما هاجمها

من البحر ، وانتصر على شاور ، واستطاع أن يفك الحصار

(١) وجب القلب وجيبا : خفق .

(٢) عفت : اندرست وانحوت . وآياته : علاماته . وحقبا : سنين .

الذى فرض عليه بالإسكندرية ؛ وأقام العدل فى مصر ، فكان ذلك كله من الأسباب التى جعلت الرعية فى دمشق يفرحون بمقدمه ، وسجل الشعر نبضات قلوبهم كما رأينا .

ويرى نشو الدولة أبو الفضل بعد أن ملك صلاح الدين دمشق أن الله يعدّه لأمر عظيم ، فقد جعله ميمون الطالع ، « وقابله الإقبال والفتح والنصر » .

وذلك إذ يقول :

أتى بعد ما نادَتْ دمشقُ لبعده

إلى ربّها : تاللهِ مسنّى الضرّ

فلهِ حمدٌ لا يزالُ مجدّداً

على ما حبا من فضله ، وله الشكرُ

أتاح لنا من بعدِ ياسٍ مبرّحٍ

مليكا غدا من بعضِ خدامه الدهرُ

ولم لا يحوزُ الأرضَ شرقاً ومغرباً

وللهِ فى إعلاءِ رتبته سرّ

وإنك لترى هذا الإحساس عند كثير من الشعراء ، تحس

قلوبهم بان صلاح الدين مهيباً لأداء امر عظيم .
ومن ذلك ما كتبه إليه اسامة بن منقذ من قصيدة قالها بعد
معركة لصلاح الدين مع الفرنج عند عسقلان :

تهنّ يا أطولَ الملوكِ يدا

في بسطِ عدلٍ ، وسطوةٍ ، وندى

أجراً وذكراً ، من ذلك الشكر في الذُّ

نيا ، ومن ذلك الجفان غدا

لاستقلّ الذي صنّعتَ فقد

قُمتَ بفرضِ الجهادِ مجتهدا

وجُستَ أرضَ العدا ، وأفئيتَ من

أبطالهم ما يجاوزُ العدا

وما رأينا غزاً الفرنج من الـ

ملوكِ في عُقرِ دارهم أحدا

فيسر إلى الشام ، فالملائكة الأبر

رارُ تلقاك مُلتقى حمدا

فهو فقيرٌ إليك يأملُ أن

تُصْلِحَ بِالْعَدْلِ مِنْهُ مَا فَسَدَا

وَاللَّهُ يُعْطِيكَ فِيهِ عَاقِبَةَ النَّصْرِ

سِرِّ ، كما في كتابهِ وَعَدَا

فما حبك الوري ، وألهمك العَدْلَ

لَ وَأَعْطَاكَ مَا مَلَكَتْ سُدَى

وجلس صلاح الدين في دار العدل بدمشق برفع المظالم ،
ويعيد الحقوق إلى أصحابها ، ويبطل ما كان الولاية قد استجدّوه
بعد موت نور الدين من الضرائب غير العادلة ، فوقف
سعادة بن عبد الله يسجل له سهره على العدالة ، ويدعوه له بدو
الملك ، ويقول :

فِي دَارِ عَدْلٍ مُذْ طَلَعَتْ بِأَفْقِيهَا

بَدْرًا جَلَوَتْ الظُّلْمَ عَنْ سُكَّانِهَا

فَبَقِيَتْ مُعْتَصِبًا بِتَاجِ بَهَايَا

فِي دَسْتِ مَجْلِسِهَا ، وَفِي إِيوَانِهَا

مَا أَصْبَحَتْ أَيْدِي الرَّعِيَّةِ تَجْتَنِي

عَفْوًا ثِمَارَ الْأَمْنِ مِنْ بُسْتَانِهَا

ويقف الشاعر في اليوم التالي فيدعوه إلى أن يضم حلب
إلى سلطانه ، ويقول له :

وَإخْطَبُ بَجْدِ الْمَوَاصِي كُلِّ شَاخِجَةٍ

فِي أَنْفِهَا شَمَمٌ ، فِي جِيدِهَا عَيْدٌ (١)

فَمَنْ يَكُنْ بِالْمَوَاصِي خَاطِبًا أَبَدًا

زُفَّتْ إِلَيْهِ بِلَادُ كُلِّهَا خُرْدٌ (٢)

هَلْ بَعْدَ جَلَّتْ إِلَّا أَنْ تَرَى حَلْبَا

وَقَدْ تَحَمَّلَ مِنْهَا مُشْكَلٌ عَقْدُ

وَقَدْ أَتَتْكَ كَمَا تَخْتَارُ ، طَائِعَةً

وَقَدْ عَنَّا (٣) لَكَ مِنْهَا الْحَصْنُ وَالْبَلَدُ

كما دعاه إلى حلب أيضا أبو الفضل بن حميد الحلبي ، فقال

له من قصيدة :

(١) الفيد : ميل العنق . (٢) الخرد : جمع خريدة ، وهي : البسكرة .

(٣) عنا : خضع .

يَابْنَ أَيُّوبَ ، لِابْتِرَحْتِ مَدَى اللَّهِ

رِ رَفِيعَ الْمَكَانِ وَالسَّلْطَانَ

حَلَبُ الشَّامِ نَحْوَ مَرَاكٍ وَلَهَا

وَلَهُ الصَّبُّ رِبْعَ بِالْهَجْرَانِ

وقال ابن سعدان الحلبي من قصيدة ، يجرّضه على فتح

حلب أيضا :

دُونَكَ وَالْحَسَنَاءِ أُمَّ الْقُرَى

وصخرها الأشهب ، والطود الأشم

واركب إلى العلياءِ كَلَّ صَعْبَةً

أَبَيْتَ لَعْنًا ، وَخَلَكَ كُلُّ ذِم

مُدًّا إِلَى أُخْتِ الشَّهَاءِ (١) زُورَةً

لا فَرْقَ (٢) يَعْقُبُهَا ، وَلَا نَدَم

إِيهِ صَلَاحَ الدِّينِ ، شُدَّ أَرْزَاهَا

وَاعْزَمَ عَلَيْهَا ، فَالزَّمانُ قَدْ عَزَمَ

(١) السماء : حدود السما ، وهي كوسب خفي من بنات نعش .

(٢) الفرق : الخوف .

ودونك المنعة من قبأبها
 وبأبها المعلق في وجه الأمم
 ويمضى صلاح الدين إلى حلب ، ويستولى على قلعها ، ويقول ،
 وهو يصعد إليها : والله ، ما سررت بفتح مدينة كسروى بفتح
 هذه المدينة ، والآن قد تبينت أنى أملك البلاد ، وعلمت أن
 ملكي قد استقر وثبت ؛ ويجلس لتقبل التهنئة ، فينشده يوسف
 البراعى قصيدة منها :

شرفت بساى مجدك الشهباءُ
 وتجللتها بهجة وضياءُ

ألقت إليك قيادها ، وبها على
 كل الملوك ترفع وإباءُ

وينشده سعيد بن محمد الحريرى قصيدة منها :

وصبحت شهباء العواصم مُصَلِّتاً

قواضب عزم لا يُغلُّ شهرها (١)

(١) صبجه : جاءه صباحاً . والقواضب : جمع قاضب ، وهو : السيف
 القطاع . وقل السيف : ثلمه . والشهير : المشهور ، من شهر السيف :
 رفعه على الناس .

فأعطيت منها غاربا^(١) فيك راغبا

وعاد يسيرا في يدك عسيها

ورد إليها روح عدلك روحها

وكانت رميمًا لا يرجي نشورها

وقال أبو طي النجّار من قصيدة يبين فيها مكانة حلب :

حلب شامة الشام ، وقد زى

دت جلالاً بيوسفٍ وجمالا

هي أس الفخار من نال أعلا

ها تعالی فخامة ، وتعالى

ومحلّ العلاء ، من حلّ فيها

تأه كبرا وعزةً وجمالا

من حواها مملكا ملك الأرز

ض اقتسارا^(٢) : سهولةً وجمالا

(١) أعطى الدابة : جهاها مطية . والغارب : ما بين السنام الى العنق .

(٢) الاقتسار : القهر .

والشعراء هنا قد سجلوا حلب الشهباء مناعتها وقيمتها بين
البلاد ، وغالى بعضهم فجعل من يملكها قديرا على امتلاك الأرض
كلها سهلها وجبلها .

وقد رأى الشعراء أن فى توحيد صلاح الدين للبلاد تحت
حكمه صلاحا لهذه البلاد نفسها ، بعد أن شقيت هذه البلاد بحكام
لا يصلحون لتدبير الملك ، ولا لإدارة شئون الرعية ، يصف
ذلك ابن سناء الملك فيقول :

ممالك لم يدبرها مدبرها

إلا برأى خصي أو بعقل صبي

حتى أتاها صلاح الدين، فأنصاحت

من الفساد، كما صححت من الوصب (١)

وفى هذا التوحيد إجماع لظامة طال ليلها على الإسلام ؛ يقول
العقاد من قصيدة يصور فيها توحيد صلاح الدين للبلاد تحت
رايته ، وخروجه من ظفر إلى ظفر ، ثم يتنفس الصعداء ،
ويقول له :

وجل عن المسلمين ليأبهم المدحجى

(١) الوصب : المرض .

ويرون في هذه الفتوح وتوحيد كلمة البلاد تمهيدا لفتح
القدس ، ونصر كلمة الإسلام ، فهذا الفتح به تتم الفتوح ، وهو لها
الغاية والأمل ، يقول العباد من قصيدة :

بفتوحِ عصرِكَ يَفخَرُ الإسلامُ

و بنورِ نصرِكَ تُشرقُ الأيامُ

أسدى صلاحُ الدين والدُّنيا يدا

بنوالِها سوقُ الرِّجاءِ تُقامُ

فتملِّ فتحكك ، واقصد الفتحَ الذي

بِحصُولِهِ لفتوحِكَ الإِتِّمَامُ

دُمُّ للعلا ، حتَّى يدومَ نظامُها

واسلم ، يَعزِّزُ بنصرِكَ الإسلامُ

لقد تبع الشعر خطى صلاح الدين ، وسجل ما بذله من
الجهود في سبيل توحيد سورية ومصر ، حتى اتحادا تحت رايته
الصفراء اللون ، التي يقول فيها علم الدين الشاتاني :

غدا النَّصرُ معقودا برايتك الصَّفْرَا

فَسِيرْ ، وافتحِ الدُّنيا ، فأنت بها أحرى

وظل يتبع خطاه طول حياته ، لا تكاد تجد حدثا هاما لم يأخذ الشعر بنصيب فيه ، ويكون صدى لشعور الشعراء إزاء هذا الحدث . بل لقد شارك الشعر في أمور ليس لها أهمية تاريخية ، فقد عمّر صلاح الدين بمصر حماما ، فكتب العرقله على هذا الحمام تلك الأبيات :

يا داخلَ الحمامِ ، هُنَيْتِهَا^(١) دَائِرَةٌ كَالْفَلَكَ الدَّائِرِ
تَأْمَلِ الجِنَّةَ قد زُخِرْفَتْ وَعُمِّرَتْ لِلْمَلِكِ النَّاصِرِ
كَأَنَّمَا فيضُ أَنَابِيهِهَا نَدَاهُ للوَارِدِ وَالصَّادِرِ

تحدث الشعر عن معاركه مع الفرنج ، وما تم بينه وبينهم من هدنة ، وسوف نتحدث عن ذلك في فصل خاص . ولكن نرى قبل ذلك أن نتحدث عن الآمال التي عقدت عليه ، وأفصح عنها الشعراء في قصائدهم .

- ٢ -

فندو ولي صلاح الدين حكم مصر عقيد الشعر عليه الأمل في طرد الصليبيين من الساحل وفتح بيت المقدس ، وانتزاعه من يد الفرنج ، يقول له العباد مرة :

(١) أنت الشاعر الحمام ، مع أنه مذكور .

وما يرتوي الإسلام حتى تغادروا

لكم من دماء الغادرين بها غدرا

فصُوبُوا عَلَى الْإِفْرَنْجِ سَوْطَ عَذَابِهَا

بأن يقسموا ما بينها القتل والأسرا

ولا تهملوا البيت المقدس، واعزموا

على فتحه غازين، وافترعوا البكرا

ويقول له أخرى :

يَا مُخْجِلَ الْبَحْرِ بِالْأَيْدِي

قَدْ آتَى أَنْ تَفْتَحَ السَّوَاهِلِ

فقدس القدس من خبثات

أرجاس كُفْرٍ غُتْمٍ أَرَاذِلِ

ويقول له عبارة اليميني بعد أن غزا صلاح الدين غزوة

وعسقلان :

لَعَلَّ بَنِي أَيُّوبَ إِنَّمَا عَلِمُوا بِمَا

تظلمت منه أن يرقوا ويشفقوا

غزواُ عُقْرَ دارِ المشركينَ بغزاةٍ
جهاراً، وطرفَ الشركِ خزبانِ مُطْرِقُ

وزاروا مُصَلَّى عسقلانِ بأرعنِ
يفيضُ إناءُ البرِّ منه ، وَيَقْبِقُ (١)

وكانت على ما شاهدَ الناسُ قبلهم
طرائقَ من شوكِ القناليسِ تُطْرِقُ

وما عَصَمَتْهُمُ مِنْكَ إِلَّا مَعَاقِلُ
تَأَنَّنُوا عَلَى تَحْصِينِهَا ، وتَأَنَّنُوا

أضفتَ إلى أجرِ الجهادِ زيارةَ الـ
خليلِ ، فأبشِرْ ، أنتَ غازٍ مُوَفَّقُ

وهيَّجتَ للبيتِ المقدسِ لوعةً
يطولُ بها منه إليك التَّشَوُّقُ

تَنشَقُّ مِنْ مَلَقَاكَ أَعْظَمَ نَفْحَةٍ
تطيبُ على قلبِ الهدى حينَ تَنشَقُ

(١) الأرعن : الجبل الطويل . وقبح الاناء : امتلاء .

وَعَزُوكَ هَذَا سَلَّمَ نَحْوَهُ فَتَحَهُ

قَرِيبًا ، وَإِلَّا رَأَيْتَهُ ، وَمُطَرِّقٌ (١)

هُوَ الْبَيْتُ إِنْ تَفَتَّحَهُ ، وَاللَّهُ فَاعِلٌ

فَمَا بَعْدَهُ بَابٌ مِنَ الشَّامِ مُفَلِّقٌ

وَيَقُولُ الْعَمَادُ :

فَسِرٌّ وَافْتَحَ الْقُدْسَ ، وَاسْفِكَ بِهِ

دَمَاءَ مَتَى تَجْرُهَا يَنْظُفُ

وَخَلَّصَ مِنَ الْكُفْرِ تِلْكَ الْبِلَادَ

دَا يُخَلِّصُكَ اللَّهُ فِي الْمَوْقِفِ

وَلَيْسَ بِعَجِيبٍ أَنْ يَعْقِدَ النَّاسُ آمَالَهُمْ عَلَى مَنْ يَحْكُمُ مِصْرَ
أَنْ يَفْتَحَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ ، وَيَسْتَرِدَّ السَّوَاهِلَ ؛ فَإِنْ عِنْدَهُ مِنَ
الْإِمْكَانِيَّاتِ مَا يَمِيدُ لَهُ السَّبِيلَ إِلَى تَحْقِيقِ هَذِهِ الْأَمَالِ ، وَقَدْ
وَجَدَ مِنْ وَزَرَاءِ مِصْرَ مَنْ جَعَلَ مِنْ أَهْدَافِهِ الْكُبْرَى اسْتِرْدَادَ
فَلَسْطِينَ وَطَرْدَ الْغَاصِبِ ، كَالْوَزِيرِ الْمِصْرِيِّ طَلَّاعِ بْنِ رَزِيكٍ ،
فَقَدْ كَانَتْ سَرَايَاهُ تَتْرَى إِلَى تِلْكَ الدِّيَارِ ، وَكَانَ مِنْ كِبَارِ أَمَانِيهِ

(١) مطرق : طريق ممد .

أن يعقد مع نور الدين محمود معاهدة يهاجمان بها الفرنج، نور الدين من الشمال ، وطلائع من الجنوب ، وبذلك يدفعان العدو إلى الحرب في جبهتين معا ، فيقضيان عليه ، ويقذفان به إلى البحر ، ولكن حال دون هذا الاتفاق اختلاف العقائد بين الاثنين : فنور الدين سُنيٌّ ، وطلائع شيعيٌّ . فلما جاء صلاح الدين راود الأمل النفوس في أن يتحقق على يديه آمال طلائع . ولما انضمت دمشق إلى ملكه زاد الأمل فيه رسوخا، ودعاه الشعراء إلى استعادة الوطن السليب . يقول له سعيد بن عبد الله :

فاسلم صلاح الدين ، وابق لدولة

ذلت لدولتها ملوك زمانها

وانهض إلى فتح السواحل نهضة

قادت لك الأعداء بعد حرانها

فإذا فتح صلاح الدين بيت المقدس وضع الشعر فيه أمله أن يجتأصل الفرنج من باقي ديار فلسطين، إذ يقول له العماد :

قل للمليك صلاح الدين أكرم من

يمشي على الأرض ، أو من يركب القرسا :

من بعد ففتحك بيت القدس ليس سوى
 «صُور» فإن فُتِحَتْ فاقصد «طرابلسا»
 أُزِرْ على يوم «أنطرسوس» ذا لب
 وابتعث إلى ليل «أنطاكيّة» العسا
 وأخل ساحل هذا الشأم أجمعه
 من العلماء ومن في دينه وكسا^(١)
 ولا تدع منهم نفساً ولا نفساً
 فإنهم يأخذون النفس والنفسا
 وكلما فتح صلاح الدين بلدا دعاه الشعر إلى فتح ما بقي في
 العدو؛ حتى إذا بقيت «صور» التي تجمع إليها الفرنج من
 حذب ينسلون قال له فتیان الشاغوري:
 فانهض «لصور»؛ فهي أحسن صورة
 في هيكل الدنيا بدت لمصور
 ماسور «صور» عاصم منه، وهل
 سور المعاصم عاصم لمصور

(١) وكس : نقص .

وإذا كان الشعراء قد وضعوا آمالهم في صلاح الدين ان
 يفتح على يديه ما اغتصبه الفرنج من أرض الوطن فقد رأينا
 بعض الشعراء لا يقف عنده حدود هذا الأمل ، بل يمتد به
 الطموح إلى توحيد العالم الإسلامي تحت راية صلاح الدين ،
 ويرى هذا البطل هو الجدير بحكم هذا العالم الإسلامي ،
 وقد رأيت هذا الطموح في شعر العهاد الذي استبشر بفتح
 صلاح الدين للقدس ، فرأى في فتح هذا البلد العصي ما يجعل
 فتح غيره من الأقطار هينا على صلاح الدين ؛ فقال له :

تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَكَ أَصْبَحْتَ

كَلَاءَتُهُ دِرْعًا ، وَعَصْمَتُهُ تَرْسًا

وَلَا تُنْسِ شِرْكَ الشَّرْقِ غَرْبَكَ مُرْوِيًّا

بِمَاءِ الطَّلِيٍّ مِنْ صَادِيَاتِ الظُّبَا الْخُمْسَا (١)

وَإِنَّ بِلَادَ الشَّرْقِ مُظَامَةٌ ، نَفْذٌ .

خراسان ، والنهرين ، والترك ، والفرسا

(١) الطلي : الاعناق . والظبا : جمع ظبة ، وهي حد السيف وغرب كل

شيء : حده .

لقد بلغ صلاح الدين في نفوس الشعراء مبلغاً كبيراً ، ورأوه
جديراً بأن يكون حاكم بلاد الإسلام ، بدل ما كان في عهده
من حكام صغار .

بل رآه بعضهم جديراً بملك الأرض ، فقال الحكيم أبو الفضل :

وَمَنْ أَحَقُّ بِمَلِكِ الْأَرْضِ مِنْ مَلِكِ

كَأَنَّهُ مَلِكٌ فِي الْخَلْقِ حَنَّانٌ

ويدعوه الشعراء أن يصحبه التوفيق أينما كان ، فيقول له
الشاعر عقيل بن يحيى :

أطاعتك أطراف الردينية^(١) الشمري

وسالمك التوفيق في البر والبحر

وعشت مدى الأيام لا قال قائل

كبابك زنت في عظيم من الأمر

— ٣ —

ولا تكاد معركة من معاركه مع الفرنج لم يقل فيها الشعراء
شعراً يصورها ويخلدها ، حتى صغار المعارك قيل فيها الشعر الذي
صور إحساس الناس إزاءها .

(١) الردينية : الرح .

فَئِذْ مَعْرَكَةٌ دِمِيَاطُ الَّتِي أَبْلَى فِيهَا صِلَاحُ الدِّينِ بِلَاءَ حَسْبَتِنَا ،
عِنْدَمَا كَانَ وَزِيرًا لِلْعَاظِدِ ، إِلَى أَنْ عَقَدَتِ الْمَدِينَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَلِكِ
الْإِنْجِلِيزِ : رِيْتَشَارْدُ قَلْبِ الْأَسَدِ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِقَلِيلٍ ؛ تَغْنَى الشَّعْرُ
بِمَعَارِكِهِ مَعَ الْفَرَنْجِ .

فَفِي أَوَّلِ صَفْرِ سَنَةِ خَمْسٍ وَسِتِّينَ وَخَمْسِمِائَةَ نَزَلَ الْفَرَنْجُ عَلَى
دِمِيَاطٍ يَرِيدُونَ أَنْ يَمْلِكُوهَا لِيَكُونَ لَهُمْ مَوْطِئٌ قَدِمٌ يَاوُونَ
إِلَيْهِ ، فَقَدْ خَافُوا مِنْ هَذِهِ الْوَحْدَةِ أَنْ تَمَّ بَيْنَ الشَّامِ وَمِصْرَ بَعْدَ
أَنْ انْتَصَرَ أَسَدُ الدِّينِ شِيرَكُوهُ فِي مِصْرَ ، وَأُرْسِلَ فَرَنْجُ السَّاحِلِ
إِلَى الْفَرَنْجِ الَّذِينَ بِالْأَنْدَلُسِ وَصَقَلِيَّةِ يَسْتَمِدُّونَهُمْ ، وَيُخَبِّرُونَهُمْ
بِمَا تَجِدُّدٌ مِنْ أَمْرِ مِصْرَ ، وَأَنَّهُمْ خَائِفُونَ عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَنْ
يَسْقُطَ فِي أَيْدِي الْمَسَامِينِ ، وَأُرْسِلُوا جَمَاعَةً مِنَ الْقَسُوسِ
وَالرَّهْبَانِ ، يَحْرُضُونَ النَّاسَ عَلَى الْحَرَكَةِ ، فَأَمَدَوْهُمْ بِالْمَالِ
وَالرِّجَالِ وَالسَّلَاحِ ، وَرَأَوْا النُّزُولَ عَلَى دِمِيَاطٍ ؛ ظَنَنَّا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ
يَمْلِكُونَهَا ، وَيَتَخَذُونَهَا ظَهْرًا يَمْلِكُونَ بِهِ دِيَارَ مِصْرَ ، فَلَمَّا نَزَلُوهَا
حَصَرُوهَا ، وَضَيَّقُوهَا عَلَى مَنْ فِيهَا ، فَأُرْسِلَ إِلَيْهَا صِلَاحُ الدِّينِ
الْجُنْدُ فِي النَّيْلِ ، وَمَلَأَ دِمِيَاطُ بِالْمَقَاتِلَةِ مِنَ الْأَبْطَالِ وَالْفَرَسَانِ ،
وَأَمَدَّهُمُ بِالْمَالِ وَالسَّلَاحِ وَالذَّخَائِرِ ، وَأَخَذَ صِلَاحُ الدِّينِ يَشْنُ
الغارات عليهم من الخارج ، والجند يقتاتلونهم من الداخل ،

حتى ظهر المصريون على اعدائهم ، ورحل الأعداء عن دمياط
في الحادى والعشرين من ربيع الأول ، بعد حصار وعراك
دام خمسين يوماً ؛ فقال عمارة اليمنى :

مَنْ شَاكِرٌ ، وَاللَّهُ أَعْظَمُ شَاكِرٍ
مَا كَانَ مِنْ نِعْمَى بِنَى أَيُّوبِ
طَلَبَ الْهُدَى نَصْرًا ، وَقَدَّاتُوا :

حَسْبِي ، فَأَتَمَّ غَايَةَ الْمَطْلُوبِ
جَلَبُوا إِلَى دَمِيَاطَ عِنْدَ حَصَارِهَا
عَزَّ الْقَوَى ، وَذَلَّةَ الْمَغْلُوبِ
وَجَلَّوْا عَنِ الْإِسْلَامِ فِيهَا كَرْبَةً
لَوْ لَمْ يُجْلُوْهَا أَتَتْ بِكُرُوبِ

والشاعر يعترف بفضل الأيوبيين في الدفاع عن دمياط ،
ويثبت ما كان لإجلاء الفرنج عن دمياط من أثر في كبح جماح
طغيانهم ، والحد من أطماعهم .

أما الشهاب فتیان الشاغورى فيقول من قصيدة :

ولمَّا أَتَوْا دِمِياطَ كَالْبَحْرِ طَامِيًا
وليسَ له من كثرةِ القومِ ساحلُ
يزيدُ عن الإحصاءِ والمدِّ جَمْعُهُمْ
ألوفُ ألوفٍ خيلُهُمُ والرَّواحِلُ
رَأَوْا دُونَهُمْ أَسَدًا بِأَيْدِيهِمُ الْقَنَا
وبيضاً رِقَاقًا أَحْكَمَتَهَا الصِّيَاقِلُ (١)
وَدَارُوا بِهَا فِي الْبَحْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
وَمِنْ دُونِهَا سَدٌّ مِنَ الْمَوْتِ حَائِلُ
رَجَا الْكَلْبُ مَلِكَ الرُّومِ إِذْ ذَاكَ فَتَحَهَا
نَخَافَ ، فَأَمَّ الْمَلِكَ وَالرُّومَ هَابِلُ
فَعَادُوا عَلَى الْأَعْقَابِ مِنْهَا هَزِيمَةً
كَانَهُمْ ذُلًّا نَعَامٌ جَوَائِلُ (٢)
وَمَا أَمَّنُوا أَنْ يَلْحَقُوا بِبِلَادِهِمْ
لَتَنْقَصِيَهُمْ مِمَّا رَأَوْهُ الْمَعَالِلُ

(١) الصياقل : جمع صيقل ، وهو : صانع السيف .

(٢) جوائل : جمع جائل ، وهو : المنزح .

والشهاب هنا يصور الجمع الذي حشده الفرنج فجعله كالبحر
الطامى ، وقد استقبلهم الجيش المصرى فى شجاعة نادرة ، وسلاح
كامل ماض ؛ كما صور حصار الفرنج دمياط ، وما كان يدور فى
نفوسهم من الآمال فى الاستيلاء عليها ، ثم عودتهم عنها
أذلاء مهزومين .

ويشئ العمد صلاح الدين بنصره على الفرنج فى دمياط ،
فيقول له من قصيدة :

يا يوسفَ الحسن والإحسان ، ياملكاً
بجدّه صاعداً ، أعداؤه هبطوا

هنيت صوتك دمياط التي اجتمعت

لها الفرنج ، فما حلوا ولا ربطوا

ويرسل إليه قصيدة أخرى يقول له فيها :

وحطت دمياط إذ أحاط بها

من برجوم البلاء يقذفها

لاقت غواة الفرنج خيبتها

فزاد من حسرة تأسفها

أوردت قلبَ القلوبِ أرشيَّةَ (١)
 من القنأ للدماءِ تنزفُها
 يُمضي لك الله في قتالهم
 عزيمةً للجهادِ ترهفُها

والعهد هنا يصور ما أعده العدو من أدوات الفتك والتدمير
 لدمياط ، ثم ملاقاه من خيبة الأمل أمام ما كان للجيش المصرى
 من أسلحة ماضية حطمت آمال المعتدين .

فلما فتحت طبرسية وهزم الفرنج عند حطين سنة ثلاث وثمانين
 وخمسة ، تقدم الشعر مهنتا صلاح الدين ذا كرا فضله وبلاءه في
 المعركة ، فمن قال في هذا الفتح على بن الساعاتي ، فقد أنشأ
 قصيدة جاء فيها :

جَلَّتْ عَزَمَاتُكَ الْفَتْحَ الْمُبِينَا
 فَقَدْ قَرَّتْ عِيُونَ الْمُؤْمِنِينَا
 رَدَدْتَ أَخِيذَةَ الْإِسْلَامِ لِمَا
 غَدَا صَرْفُ الْقَضَاءِ بِهَا ضَمِينَا

(١) أرشيَّة : جمع رشاء ، وهو الخيل ، ويريد بالأرشيَّة : السيوف والرماح .

يَقَاتِلُ كُلُّ ذِي مُلْكٍ رِيَاءً
وَأَنْتَ تَقَاتِلُ الْأَعْدَاءَ دِينًا
غَدَتْ فِي وَجْهِهِ الْأَيَّامُ خَالًا
وَفِي جِيدِهِ الْعُلَا عِقْدًا تَمِينًا
فِي اللَّهِ ، كَمْ سَرَّتْ قُلُوبًا
وَيَا لِلَّهِ ، كَمْ أَبَكَّتْ عُمُونا
وَمَا طَبْرِيَّةٌ إِلَّا هَدِيَّةٌ (١)
تَرْفَعُ عَنْ أَكْفِ الْأَمْسِينَا
حَصَانُ الذَّلِيلِ لَمْ تُقْذَفْ بِسُوءٍ
وَسَلَّ عَنْهَا اللَّيَالِي وَالسَّنِينَا
فَضَضَتْ خِتَامَهَا قَسْرًا ، وَمَنْ ذَا
يَصُدُّ اللَّيْثَ أَنْ يَلْبَجَ الْعَرِينَا
قَضَيْتَ فَرِيضَةَ الْإِسْلَامِ مِنْهَا
وَصَدَّقْتَ الْأَمَانِي وَالظَّنُونَا

(١) الهدى كفى : العروس .

هَزُّ مَعَاظِفِ الْقُدْسِ ابْتِهَاجًا
وَتَرْضَى عَنْكَ مَكَّةَ وَالْحَجُّونَا (١)

فَلَوْ أَنَّ الْجَادَ يُطِيقُ نَطَقًا
لِنَادَتِكَ : ادْخُلُوهَا آمِنِينَا

جَعَلَتْ صَبَاحَ أَهْلِهَا ظَلَامًا
وَأَبَدَلَتْ الزُّرِّيَّ بِهَا أَفِينًا

تَحَالُ حِمَاةَ حَوَزَتِهَا نِسَاءً
يَخُوضُونَ الْحَدِيدَ مُقْنَعِينَا

لِيَبْيُضِكَ (٢) فِي جَمَاجِمِهِمْ غِنَاءً
لَدِيدٌ عِلْمَ الطَّيْرِ . الْحَنِينَا

تَمِيلُ إِلَى الْمُتَّقَةِ الْعَوَالِي
فَهَلْ أَمَسَتْ رِمَاحًا أَمْ غُصُونَا

يَكَادُ النَّقْعُ يَذْهَبُهَا ، فَلَوْلَا
بُرُوقُ الْقَاضِيَاتِ (٣) لَمَّا هُدِينَا

(١) الحجون : السيف .

(٢) البيض : السيف .

(٣) القاضيات : السيف القاطمة .

فكم حازت قُدودُ قنّاكِ منها
 قُدودًا كالقنبا : لونا ولينا
 وغيدِ كالجاذِرِ آنساتِ
 كغفيدِ نذاكِ أبكارا وعونا
 ولما باكرتها منك نُعمى
 بنانٍ تفضحُ الغيثَ الهُونا
 أعدتَ بها اللباليَ وهى بيضُ
 وقد كانتَ بها الأيامُ جونا^(١)
 فلا عديمَ الشّامِ وساكنوه
 ظبيّ تشفى بها الداءَ الدّينا
 سُهادُ جُفونها في كلِّ فتحِ
 سُهادٌ يَمْنَحُ الغمضَ الجُفونا

(١) الجون : السود .

فَأَلِمَهُ بِالسَّوْاحِلِ ، فَهِيَ صُورٌ
إِلَيْكَ ، وَالْحَقُّ الْهَامُ الْمُتُونَا
فَقَلْبُ الْقُدْسِ مَسْرُورٌ ، وَلَوْلَا
سُطَاكَ لَكَانَ مَكْتُوبًا حَزِينًا
أَدْرَتْ عَلَى الْفَرَنْجِ ، وَقَدْ تَلَاقَتْ
جُمُوعُهُمْ عَلَيْكَ رَحَى طَحُونَا
فَفِي « بَيْسَانَ » ذَا قَوْمِكَ بُوْسًا
وَفِي « صَفَدِ » أَتَوَكَ مُصَفِّدِينَا
لَقَدْ جَاءَتْهُمْ الْأَحْدَاثُ جَمْعًا
كَأَنَّ صُرُوفَهَا كَانَتْ كَمِينَا
وَحَانَهُمُ الزَّمَانُ ، وَلَا مَسْلَامَ
فَلَسْتُ بِمُبْغِضٍ زَمَنًا خُتُونَا
لَقَدْ جَرَدَتْ عِزْمًا نَاصِرِيًّا
يُحَدِّثُ عَنْ سَنَاهُ طُورُ سِينَا

فَكُنْتُ كَيُوسُفَ الصَّادِقِ حَقًّا

لَهُ هَوَتْ الْكَوَاكِبُ سَاجِدِينَ

لَقَدْ أَتَعَبْتِ مَنْ طَلَبَ الْمَعَالِي

وَحَاوَلَ أَنْ يَسُوسَ الْمُسْلِمِينَ

وَإِنْ تَكُ آخِرًا ، وَخَلَائِكَ دَمٌّ

فَإِنَّ مُحَمَّدًا فِي الْآخِرِينَ

والشاعر في هذه القصيدة يمجّد عزمات صلاح الدين التي كان من آثارها هذا الفتح المبين ، ويبين أثر هذا الفتح في نفوس المؤمنين ، فقد قرت به أعينهم ، ولم لا تقر عيونهم ، وقد رد صلاح الدين إلى الإسلام ما أخذ منه .

ويقف الشاعر معجبا بمخلة من خصال صلاح الدين ، تلك هي عقيدته التي تدفعه إلى قتال عدوه ، فهو لا يريد بقتالهم رياء ولا سمعة ؛ ولكنه يخوض غمرات القتال مدافعا عن عقيدته ودينه .

ويصف الشاعر المعركة بأنها تجمل الأيام ، وتميز بين المعالي ، وتزينها .

ويبين اثر هذه المعركة في النفوس فيينا هي قد سرت نفوس
المؤمنين ، أبكت عيون الفرنج المهزومين .

ويصور الشاعر طبرية بالعروس .

ويعضى متحدثا عن هذا الفتح الذى حقق به البطل آمال
المسلمين ، وجعل بلاد الإسلام تهتز ابتهاجا بالنصر المبين .

ويتحدث الشاعر عن المعركة ومن أسر فيها ، ويدعو للبطل
إن تظل سيوفه تفتح البلاد ، ويحمله على فتح ما بقى من بلاد
الساحل . ويسجل ما سبق أن فتحه صلاح الدين مما كان
في يد الفرنج .

ويفرح الشاعر بخذلان العدو ، وحمى الأحداث متوالية
بهزيمتهم .

ويسجل للبطل الفاتح ما بلغه من مجد يتعب من يريد
الوصول إلى مثله ، ولا يضيره أن يأتى فى الزمن الأخير ، فقد
جاء محمد آخر الأنبياء والمرسلين .

ومن قصيدة للشهاب فتیان الشاغورى يصف معركة حطين :

جاشت جيوشُ الشركِ يومَ لقيتهمُ

يتذامرون على مُتُونِ الضُمْرِ (١)

(١) التذامر : التحاض على القتال . والضمير : جمع ضمير ، وهو الفرس الخفيف اللحم .

أوردت أطرافَ الرِّمَاحِ صُدُورَهُمْ
فولَعْنَ فِي عَاقِي النَّجِيعِ الْأَحْمَرِ (١)
فَهِنَاكَ لَمْ يَرْ غَيْرُ نَجْمٍ مُقْبِلٍ
فِي إِثْرِ عَفْرِيَتِ رَجِيمٍ مُدْبِرٍ
فَمَنْ الَّذِي مِنْ جَيْشِهِمْ لَمْ يُخْتَرَمْ (٢)
وَمَنْ الَّذِي مِنْ جَعِهِمْ لَمْ يُوسِرِ
حَتَّى لَقَدْ بِيَعَتْ عَقَائِلُ أَرْهَقَتْ
بِالسَّبْيِ بِالثَّمَنِ الْأَخْسِ الْأَحْمَرِ
لَا يَعْدُ مِنْكَ الْمَسَامُونَ ، فَكَمْ يَدَا
أَوْلِيَتِهِمْ مَعْرُوفَهَا لَمْ تُنْكَرِ
أَمَنْتَ سِرِّيهِمْ ، وَصُنْتَ حَرِيمَهُمْ
وَدَرَأْتَ عَنْهُمْ قَاصِمَاتِ الْأُظْهِرِ
مَا إِنْ رَأَىكَ اللَّهُ إِلَّا أَمْرًا
فِيهِمْ بِمَعْرُوفٍ ، وَمُنْكَرٍ مُنْكَرِ

(١) العلق : الدم الغليظ . والنجيع : الدم .

(٢) اختارم القوم : استأصلهم

بمواضع الله جلَّ جلاله

وبك اضمحلت سطورة المتكبر

لم يخلُ سمع من هناء مهني

للمسلمين ، ومن سماع مبشر

واستعظم الأخبار عنك معاشر

فاستصغروا ما استعظموا بالمخبر

مضت الملوك ، ولم تنل عشر الذي

أوتيته من منجج أو مفخر (١)

والشاعر هنا يصور الأعداء وقد مضوا بين قتيل وأسير ، وقد
نجح عن كثرة الأسر أن يبعث الأسيرات بأبخس الأثمان . ويذكر
التاريخ أنه بلغ من هوان أسرى الفرنج وكثرتهم أن يبع منهم
يومئذ واحد بنعل (٢) . وتسجل القصيدة ما لصالح الدين من
آثار بيضاء على المسلمين في ذلك الحين ، فقد جعلهم يأمنون بعد
خوف ، ويطمثون على سلامة حريمهم ، وصيانة نساءهم ، ودفع
عنهم شر الفرنج وما كان المسلمون يجدونه منهم من الغنى والمشقة .

وتشيد القصيدة ببعض صفات البطل من اتقياده لأمر الدين ،
وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، وما كان يتصف به من
تواضع برغم تحطيمه قوى الباغين المتكبرين . وتصور أثر المعركة
الناجحة في قلوب المسلمين ، وبهجتهم بها ، وتوازن بين صلاح الدين
ومن سبقه من الملوك .

ومما ينبغي أن يوجه إليه النظر أن الشعراء الذين تحدثوا عن
معركة بيت المقدس التي دارت بعد معركة حطين خصصوا جزءا
من قصائدهم للحديث عن معركة حطين ، فقد نظروا إليها
على أنها مقدمة لهذا الفتح المجيد .

وأكبر ما نال تمجيد الشعراء في أيام صلاح الدين معركة
بيت المقدس ؛ وقف الشعراء ينشدون صلاح الدين شعرهم ،
وأرسل كثير منهم قصائد التهنئة إليه عندما لم يستطيعوا إنشاده ،
وأنشأ بعض الشعراء أكثر من قصيدة في هذا الفتح المبارك .
وظفر الأدب العربي بذخيرة من شعر الفتح يمتاز كثير منه بالقوة
وتدفق ماء الحياة . ومن ذلك قصيدة لفخر الكتاب الحسن
الجويني ، منها قوله :

جُنْدُ السَّمَاءِ لِهَذَا الْمَلِكِ أَعْوَانُ

من شكّ فيهم فهذا الفتحُ برهانُ

متى رأى الناس ما نحكيه في زمن
 وقد مضت قبل أزمان وأزمان
 هذى الفتوح فتوح الأنبياء ، وما
 له سوى الشكر بالأفعال أمان
 أضحى ملوك الفرنج الصييد في يده
 صييداً ، وما ضعنوا يوماً ، وما هانوا
 كم من فحول ملوك غودروا ، وهم
 - خوف الفرنجة - ولدان ونسوان
 استصرخت بملكشاه طرايلىس
 فقام^(١) عنها ، وصمت منه آذان
 هذا ، وكملك من بعده نظر ال
 إسلام يطوى ويحوى ، وهو سكران
 تسعون عاما بلاد الله تصرخ ، وال
 إسلام أنصاره صم وعميان

(١) خام عنه : نكص وجبن

فَالآنَ لِي صَلاَحُ الدِّينِ دَعَوَتِهِمْ
بِأَمْرِ مَنْ هُوَ لِلْمِعْوَانِ مِعْوَانُ
لِلنَّاصِرِ ادَّخِرْتَ هَذِي الْفَتْوحُ، وَمَا
سَمَتْ لَهَا هَمُّ الْأَمْلَاقِ مُذْ كَانُوا
فِي نِصْفِ شَهْرِ غَدَا لِلشَّرْكِ مِصْطَلَمَا
فَطَهَّرْتَ مِنْهُ أَقْطَارَ وَبُلْدَانُ
لَوْ أَنَّ ذَا الْفَتْحِ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ لَقَدْ
تَنْزَلَتْ فِيهِ آيَاتُ وَقُرْآنُ
خَزَنْتَ عِنْدَ إِلَهِ الْعَرْشِ سَائِرَ مَا
مَلَكَتَهُ، وَمَلُوكُ الْأَرْضِ خُزَّانُ
فَاللَّهُ يَبْقِيكَ لِلْإِسْلَامِ تَحْرُسُهُ
مَنْ أَنْ يُضَامَ، وَيُلْفَى وَهُوَ حَيْرَانُ
وَهَذِهِ سَنَةٌ أَكْرَمُ بِهَا سَنَةٌ
فَالْكَفَرُ فِي سِنَةٍ، وَالنَّصْرُ يُقْضَانُ

إذا طوى الله ديوان العباد فما

يطوى لأجر صلاح الدين ديوان

والشاعر هنا يبهره الفتح الذي جاء بعد طول بأس
وانتظار ، فلم يشك في أن الملائكة كانوا أعوانا في هذا الفتح ،
فقد مضت أزمان متطاولة لم ير الناس فيها مثل هذا النصر المبين .
إن هذا الفتح فتح نبي لا ملك .

ومضى الشاعر يوازن بين صلاح الدين ومن سبقه من الملوك :
أما صلاح الدين فقد صار ملوك الفرنج في يده أسرى برغم أنهم
لم يكونوا ضعافا ولا أذلاء ، أما من قبله من الملوك فكثير منهم
كانوا كالولدان أو النساء خوفا من الفرنج . ولست أشك في أن في
ذلك كثيرا من المبالغة ، فإن كثيرا من الملوك قبل صلاح الدين
حاربوا الفرنج ، وحاولوا أن يستردوا ما اغتصب من أرض
الوطن ، ولكن لم تكن لديهم همة صلاح الدين ولأما في يده
من الإمكانيات .

ويسجل الشاعر على أحد هؤلاء الملوك ويدعى : ملكشاه
الذي استصرخت به طرابلس ، فلم يسمع نداءها ، وأعرض عنها .
وهكذا انقضت تسعون عاما وهذا الجزء من أرض الوطن

في يد أعدائه ، يستغيث ولا مغيث ، حتى جاء صلاح الدين ،
فاستجاب للنداء ، ومضى يدمر الغاصبين المعتدين .

ويهتف الشاعر من أعماقه لهذا العام المبارك ، فقد تم النصر
فيه على العدو في معركتين خالدين : معركة صفين ، وبيت المقدس .

ويقول الشريف النسابة المصري من قصيدة :

أرى مناماً ما بعينى أبصرُ
القدسُ يُفتحُ والفرجةُ تُكسرُ

ومليكتهم في القيد مصفود^(١) ولم

يُرَ قبل ذلك لهم مليك يؤسرُ
قد جاء نصرُ الله والفتحُ الذي

وعد الرسولُ ، فسبّحوا ، واستغفروا

فُتِحَ الشَّامُ ، وطهرَ القدسُ الذي

هو في القيامةِ للأنامِ المحشرُ

يا يوسف الصّدِّيقُ أنت لفتحِها

فاروقها عمرُ الإمامِ الأطهرُ

(١) مصفود : مقيد مغلول

ويشترك هذا الشاعر والشاعر السابق في الإعجاب بهذا
الفتح إعجابا ظن معه أن ما يراه بعينه هو حلم تمر أحداثه في
المنام ، وهذه القصيدة وسابقتها توحيان بأن النفوس يومئذ
كانت ترى استرجاع ما اغتصب من أرض الوطن أملا عسير
التحقق ، فرأينا الشاعر الأول يؤكد أن الذي أعان على هذا
الفتح إنما هم الملائكة ، ونرى الثاني يتساءل إن كان ما يراه
حقيقة أم حلما ؟ بينما يعده الساعات آية عظيمة ، وذلك إذ يقول :

أعيانا وقد عاينتم^{تم} الآية العظمى
لاية^{تم} خال^{تم} نذخر^{تم} الفئر^{تم} والنظما

وتدلان كذلك على أن المسلمين لم يكونوا يستبينون بأمر
الفرنج وملوكهم ، وإنما كانوا يرون الغلبة عليهم محتاجة إلى جهد
عنيف ، ويرون ملوكهم أشداء أقوياء ؛ ولهذا انصرف الشعر
إلى تمجيد صلاح الدين تمجيذا رفعه إلى درجة أنه يشبه الخلفاء
الراشدين .

وقال ابن جبير الأندلسي :

أطلت على أفقك الزاهر
سعود من الفلك الدائر

فأبشِرْ ، فإن رقاب العدا
تُمدُّ إلى سيفك الباتِر
وكنم لك من فتكَةٍ فيهمُ
حكّت فتكَةً الأسدِ الخادر (١)
كسرت صليبيهمُ عنوةً
فله دركٌ من كاسر
وغيّرت آثارهمُ كلَّها
فليس لها الدهر من جابر
وأمضيت جدك في غزوم
فتعسّاً لجدّهم العائر
وأدبر ملكهم بالشّا
م ، وولى كأمسيهم الدّائر
جنودك بالرّعب منصورة
فناجز متي شئت ، أو صابر

(١) الإسه الخادر : الساسن في الأجمة

فكلهم غرق هالك
 بتيار عسكرك الزاخر
 ثارت لدين الهدى في العدا
 فآثرك الله من ثائر
 وقمت بنصر إله الوري
 فسمك بالملك الفاصر
 وجاهدت مجتهداً صابراً
 فله أجرك من صابر
 تبيت الملوك على فرشهم
 وترفل في الزرد السابري (١)
 وتؤثر جاهد (٢) عيش الجها
 د على طيب عيشهم الناصر
 وتسمه ليلك في حق من
 سيرضيك في جفك الساهر

(١) السابري : درع دقيقة النسج . والزردي : الدرع .

(٢) جهد عيشه بكسر الهاء : نكه واشته .

فَتَحَّتَ الْمَقْدَسَ مِنْ أَرْضِهِ
فَعَادَتْ إِلَى وَصْفِهَا الطَّاهِرِ
وَجِئْتَ إِلَى قُدْسِهِ الْمُرْتَضَى
فَخَلَّصْتَهُ مِنْ يَدِ الْكَافِرِ
وَأَعْلَيْتَ فِيهِ مَنَارَ الْهُدَى

وَأَحْيَيْتَ مِنْ رَسْمِهِ الدَّائِرَ (١)
لَكُمْ ذَخَرَ اللَّهُ هَذَا الْفُتُو

حَ مِنْ الزَّمَنِ الْأَوَّلِ الْغَائِرِ
وَخَصَّكَ مِنْ بَعْدِ فَارُوقِهِ
بِهَا لِاصْطِنَاعِكَ فِي الْآخِرِ
مَحَبَّتُكُمْ أَلْقَيْتَ فِي النَّفْوِ

س بِذِكْرِكُمْ فِي الْوَرَى طَائِرِ

والقصيدة واضحة المعنى ، سهلة العبارة ، تحمل كثيراً من
التفاؤل ، فبعد فتح القدس أمل الناس استرداد جميع أجزاء

(١) دثر الرسم : انمحي . والرسم : ما بقي من آثار الديار .

الوطن المغتصب ، ولذلك صح لابن جبير أن يقول في هذه القصيدة :

وأدبر ملكهم بالشأ

م وولى كأمسهم الدابر

ويطول بي وجه القول إذا أنا أوردت ما قيل في معركة

بيت المقدس من الشعر ، وما قيل في بقية معاركه ، فذلك مقدار

ضخم لا سبيل إلى إيراده .

— ٤ —

واحتفظ الشعر لصلاح الدين بصورة ترسم سجاياه التي

أعجب بها أهل عصره ؛ ومن تلك السجاياء صفات شخصية ،

وأخرى اجتماعية ، ومنها ما كان يسوس بها شؤون رعيته ، ومنها

صفات حرية ، وأخرى دينية .

أما الصفات الشخصية التي أعجب بها الشعراء فأراؤه الصائبة

السديدة التي تبدو كأنها وحى أو إلهام . يقول فيه سعادة

ابن عبد الله :

فتي مهتدي الآراء في كلِّ حادثٍ

مضلل لآراء الرجال بها خبطُ

ويقول فيه مرة أخرى :

صعبُ العريكةِ ، سهلُ الرَّاحَتَيْنِ له

رأى اِحصيفٌ قويمٌ غيرُ ذى مِيلِ

رأى شديدُ القوى ، ما فيه من خورِ

لا بل شديدُ النهى ما فيه من خَلَلِ

وهو يقرن رأيه بالعزم ، قال فيه أبو الفضل الجلباني :

لتظفرَنَّ بما لم يحويه ملكٌ

أبا المظفرِ ، حظاً خطاه الأزلُ

دليلُ ذلك أراه لك اقتربت

بالحزمِ والعزمِ ، لم يُخصَّصْ بها الأوَّلُ

وهو دائمُ اليقظة والنَّبه ، فلا غرابة إن ظفر بما لم يظفر :

نسواه ، قال ابن سناء الملك :

أراد ملوكُ الأرضِ سعدك ، واشتَهوا

تعلُّمَهُ ، والسَّعدُ لا يُتعلَّمُ

ملكتم أقاليم الملوك ، وإتما
سهرت وأملاك الأقاليم نوم
وهو عظيم الهمة بعيد الآمال ، يقول عنه ابن سناء الملك :

حتى أتى من منال النجم مطلبه
يا طالب النجم ، قد أوغلت في الطلب
ويقابل الشدائد التي تصادفه بصدر رجب ، بل يجذب في

عراكتها عذوبة ولذة ، قال فيه سعادة بن عبد الله :

أغرّ ، يمدبُ صاب^(١) الحادثات له
فصاها عنده أحلى من العسل
وهو زاهد كذلك رغم سعة ملكه وعظم سلطانه . يقول
الحكيم أبو الفضل :

زهدت فيما سبي الأملاك منكذرا
عاشا بملك نعيم ما به كدر
وطبت نفسا عن الدنيا وزخرفها
وجئت تقدم حيث الهول والخطر

(١) الصاب : عصارة شجرة مرة .

أما صفاته الاجتماعية فقد مجد الشعراء من بينها كرمه ،
وأكثروا الحديث عن هذه الصفة ، يقول سعادة بن عبد الله :

سَمَّحٌ يَرُوحُ إِلَى النَّدِيِّ بِرَاحَةٍ
قَدْ أَعْشَبَ الْمَعْرُوفُ بَيْنَ بَنَائِهَا
وَفَتَى إِذَا زَخَرَتْ بَحَارُ نَوَالِهِ

عَرِقَتْ بَحَارُ الْأَرْضِ فِي خُلُجَانِهَا
ويقول سبط ابن التعاويذي :

فَلَا يُضْجِرُنكَ ازْدِحَامُ الْوَفْوِ
دِ عَلَيْكَ ، وَكَثْرَةُ مَا تَبَدَّلُ
فَإِنَّكَ فِي زَمَنِ لَيْسَ فِيهِ

ه جَوَادٌ سَوَاكٌ ، وَلَا مُفْضِلُ
وَقَدْ قَلَّ فِي أَهْلِهِ النَّمْعُو

ن ، وَقَدْ كَثُرَ الْبَأْسُ الْمُرْمِلُ
وَمَا فِيهِ غَيْرُكَ مِنْ يُسْتَمَّا

ح ، وَمَا فِيهِ إِلَّاكَ مِنْ يُسْأَلُ

ويقول نشو الدولة أبو الفضل :

وكم لصلاح الدين ، مذ كان ، من ندى

إِذَا ضَوَّعَ ^(١) النَّادِي بِهِ خَجَلَ الْعِطْرُ

ويقول أبو طالب بن الخشاب :

ولقد ظمئتُ فلم أجد بدلا من الماء

وَالزُّلَالِ سَوَى مَوَاطِرِ سُحْبِهِ

ويقول علم الدين الشاتاني :

يَمِينُكَ فِيهَا الْيُمْنُ ، وَالْيُسْرُ فِي الْيُسْرَى

فَبُشْرَى لِمَنْ يَرْجُو النَّدَى مِنْهُمَا ، بُشْرَى

ويقول العماد :

وَقِيلَ لَنَا : فِي الْأَرْضِ سَبْعَةُ أَمْحُرٍ

وَلَسْنَا نَرَى إِلَّا أَنْامِلَهُ الْخَمْرُ

ويقول سبط بن التعاويذي :

قَسَمًا لَقَدْ فَضَّلَ ابْنُ أَيُّوبَ الْحَيَا ^(٢)

بِسَاحِ كَفِّ بِالْفَضِّ ^(٣) أَرِ هُتُونِ

(١) ضاع المسك : تحرك ، فانتشرت رائحته . ومضوع أيضا .

(٢) الحيا : المطر . (٣) النضار : الذهب . وهاتن المطر : قطر .

مخلوقة من سُودِدٍ وَندَى ، وقد
خُلِقَ الأنامُ سَلَالَةً من طين
يا مَنْ إذا نَزَلَ الوفودُ ببابه
نزلوا بحِجْمٍ من نِدادِهِ معين
وقال ابن الدّهان :

بيدِي فتي لو أنَّ جودَ يمينِهِ
للغيثِ ، لم يَكُ مُمسِكاً عن موضعِ
فإذا تَبَسَّمَ قال : يا جودُ ، اندفقِ
فيضا ، ويا سحبَ النَّدَى ، لا تقلعي
ومجدوا فيه كذلك صفة الحليم ، يقول فيه سعادة :

كريمٌ إذا ما جاءه معدمٌ حبا
حليمٌ إذا ما جاءه مجرمٌ عفا
ويقول فيه نجم الدين يوسف بن الحسين :
عزمٌ وحزمٌ أنسيًا ما كان من
عزمِ ابنِ مرداسٍ وحلمِ الأحنفِ

اما سياسته لرعيته فتقسم بالعدل ، يقول فيه سبط بن
الجوزى :

الملك العادل الذى كشف الله به هم كل مكروب
ويقول أسامة بن منقذ :

وسرت سيرة عدل في الأنام كما

قضى به الصادقان : الشرع والشور

وبالتواضع الذى لا يחדش العزة ، واللين الذى لا يمس

الهيبة ، يقول له سبط بن التعاويذى :

لك عفة في قدرة ، وتواضع

في عزة ، وشراسة في لين

وبهذه الصفات استطاع أن يملك قلوب شعبه بالحب والمهابة

يقول فيه أسامة بن منقذ :

ملك القلوب محبة ومهابة

فاقتادها طوعا بهيبة غاصب

ويجمل الملك ذا السلطان أن يجتمع إلى هيئته حب القلوب

له واجتماع الأئدة حوله ، كالوالد يحبه بنوه ، ويهابونه
في وقت معا .

بهذه الصفات أيضاً كان جديراً بالملك واحق به ، يقول
فيه الحكيم أبو الفضل :

وَمَنْ أَحَقُّ بِمُلْكِ الْأَرْضِ مِنْ مَلِكٍ

كَأَنَّهُ مَلِكٌ فِي الْخَلْقِ حَنَّانٍ

وكانت صورة صلاح الدين بطلاً مجاهداً من أبرز الصور

التي احتفظ بها الشعر له ، كتب إليه أسامة بن منقذ يقول :

تَهَنَّ يَا أَطْوَلَ الْمُلُوكِ يَدَا

فِي بَسْطِ عَدْلٍ ، وَسَطْوَةِ وَندَى

لَا تَسْتَقِلَّ الَّذِي صَنَعْتَ ، فَقَدْ

قُتِمَ بِفِرَاقِ الْجِهَادِ مَجْتَهِدَا

وَجُبَّتْ أَرْضُ الْعَدَى ، وَأَفْنَيْتَ مِنْ

أَبْطَاهِمَ مَا يَجَاوِزُ الْعَدَدَا

وَمَا رَأَيْتَ غَزَا الْفَرَجِ مِنْ الـ

مُلُوكٍ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ أَحَدَا

وقال الرشيد بن النابلسي من قصيدة له :

ما أبهج الدين والدنيا بما لكها الصِّ

لديق يوسف، لا لذت به الغير^(١)

ملكٌ تساوى جمادى فى الجهاد، وثُمَّ

وزٌ لديه، وضاهى ناجرا صفر^(٢)

فليس يثنيه حرٌّ إن توقدَّ عن

رضا الإله، ولا إن أغدق المطرُ

ولا يُنهنه عمّا يكابده

ضبحٌ، أعيذُ معاليه، ولا ضجرُ

ولا يرى الروحَ إلا ظهرَ سلهبةً

فى بطنِ معركةٍ مر كوبها وعُر^(٣)

صبرٌ جميل، كطعم الشهد فى فمه

وعند كلِّ مليكٍ طعمه الصبرِ^(٤)

(١) غير الدهر : أحداثه هـ

(٢) تموز : شهر يولية . والتاجر : كل شهر من شهور الصيف .

(٣) الروح : الراحة . والسلهبة من الخيل : ما عظم وطال عظامه .

(٤) الصبر بكسر الباء : الدواء المر .

وهو في ميدان القتال شجاع ، قال فيه أسامة :

يُعْطَى الألوْفَ ، ويَلْتَقِيها بِاسْمَا

طَلَقَ الحِمِيَّا فِي القَنَا المَشَاجِرِ

يَلْتَقِي العَدُوَّ بِقَلْبٍ ثَابِتٍ صَادِقِ اليَقِينِ ، أُرْسِلَ إِلَيْهِ نَحْرُ

الكَتَّابِ الجَوْنِيِّ قَصِيدَةً مِنْهَا :

لَكَ قَلْبٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ مَكِينٌ

وَلَهُ مِنْ تَقَاهِ أَلْفُ مَكِينِ

يَا مَلِيكَ يَنْتَقِي الحُرُوبَ بِجَوْلِ الأ

مُسْتَعْصِمًا وَصَدَقِ اليَقِينِ

وهو في صدر عدوه مهيب مرهوب الجانب ، حتى صار اسمه

يبعث الرعب في نفس العدو ، ويدفعه إلى الفرار والهزيمة ، قال

أبو الفضل الجلياني :

فَكَمْ مَلِيكَ لَمْ شَقَّ البَحَارَ سُرِّي

لِيَنْصُرَ القَبْرَ ، وَالأَقْدَارُ تَحْذُلُهُ

وكم ترحل منهم فيلق بفلاً

إلى الخوامع ألقاهُ ترخُّله (١)

استصرخوا الأهل ، والعدوى تمزقهم

واستكثروا المال ، والهيجا تنفله (٢)

كم قد أعدوا ، وكم قد فلَّ جمعهم

من غير ضربٍ ولا طعنٍ يرسله

وإنما اسمُ صلاح الدين يذكر في

جيش العدو ، فيسيبهم تحيُّله

وقال الحسين بن عبد الله بن رواحه :

لقد خبرَ التجاربَ منه حزمٌ

وقلبَ دهره ظهراً لبطن

فساق إلى الفرنج الخيلَ برّاً

وأدرَكهم على بحر بسنن

(١) الخوامع . جمع غامعة ، وهي الضيع ، لأنها تجمع ، أي تمشي سكانها مخرجاً .

(٢) تنفله . تجعله غنيسة .

يَرَوْنَ خِيَالَهُ كَالطَّيْفِ يَسْرِي

فَلَوْ هَجَعُوا أَتَاهُمْ بَعْدَ وَهْنٍ (١)

أَبَادَهُمْ تَخَوُّفُهُ ، فَأَمْسَى

مَنْتَاهُمْ لَوْ يَبِيئُهُمْ بِأَمْنٍ

وهو خير بالحرب ، فقيه بأمورها ، أرسل إليه من مصر

نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور قصيدة يقول له فيها :

مَلِكٌ لَهُ فِي الْحَرْبِ بَحْرٌ تَقْقُهُ

وَلَهُ غَدَاةَ السَّلْمِ زُهْدٌ تَصَوِّفُ

وعليه أنزل في الجهاد مفصلاً

فلذلك يقرؤه بسبعة أحرف

ولعل الشاعر يريد بقراءة صلاح الدين للمفصل الذي أنزل

عليه في الجهاد أنه يتصرف في فنونه على ألوان شتى يهر بها

العدو .

ولم لا يكون مرهوب الجانب وقد :

(١) الوهن : الهريج من الليل .

تَمَلَّكَ حَوْلَهُمْ شَرْقًا وَغَرْبًا

فَصَارُوا لِقَتْلِ فَنَاصٍ تَحْتَ رَهْنٍ

وذلك لأنه ملك مصر والشام والإفرنج بينهما .
وتحدث الشعراء كثيراً عن جيشه الضخم ، فيصوره أسامة
ابن منقذ بأنه إذا مشى خلته لجة من الماء ، أمواجهما على رؤوس
الجنود من الخوذ ، وما يتلأأ في أيديهم من السيوف ، وذلك
إذ يقول :

وَإِذَا سَرَى خَلَّتِ الدَّسِيطَةُ لُجَّةً

أَمْوَاجُهَا بَيْضٌ ^(١) وَبَيْضٌ قَوَاضِبٌ ^(٢)

ويتحدث سعادة بن عبد الله عن هذا الجيش ، فيصفه بأنه
كالجراد لا يحصى له عدد ، فإذا سار إلى ميدان القتال أمارت
خيله عجائباً يظلمه ، كأنه سماء عمدتها قنا الجيش ، شبهها ترصد
العدو لتصيبه ؛ وصوارم الجيش في دجى النفع تضيء كالنيران
بأيدي جنود شجعان يصغر إلى جانبهم جن عبقر وأسد بيشة ،
وبمثل هذا الجيش يدرك صلاح الدين ما يتمناه . وذلك
إذ يقول متحدثاً عن الجيش :

(١) البيض . جمع بيضة وهي الخوذة . (٢) القواضب . السيوف .

عرْمَرُمٌ كَالدَّبِّي (١) الطَّيَّارِ مُنْتَشِرٌ
 تُحْصَى الرَّمَالُ ، وَلَا يُحْصَى لِهَعْدُدُ
 تَسْمُو عَلَيْهِ سَمَاءٌ مِنْ عَجَاجَتِهِ
 مَبْنِيَّةٌ مِنْ قَنَاصٍ تَحْتَهَا عُمُدُ
 سَمَاءٌ نَقَعَ لِشَيْطَانِ الْعَدُوِّ بِهَا
 مِنَ الْأَسْتَةِ شُهْبٌ كُلُّهَا رَصَدُ
 وَفِي دِيَاجِيهِ نَارٌ مِنْ صَوَارِمِهِ
 تَكَادُ تَقْطُرُ مَاءً ، وَهِيَ تَنْقَدُ
 نَارٌ تُشَبُّ عَلَى أَيْدِي غَطَارِفَةٍ (٢)
 لَا يَبْرُقُ الْجَوْهُ إِلَّا كَلَّمَا رَعَدُوا
 مَا جِنَّ عَبَقَرٍ جِنَّ كَلَّمَا عَزَفُوا
 مَا أُسْدُ بِيْشَةَ أُسْدٌ كَلَّمَا حَرَدُوا (٣)

(١) الدبى : الجراد .

(٢) غطارفة : جمع غطريف ، وهو السيد الشريف .

(٣) حرد : غضب . وعبقر : موضع كثير الجن . وبيشة : واد فيه موضع

مشجر كثير الأسد .

من كلَّ أروعَ أما رُحْه تَمِلُّ
 لا يَسْتَفِيقُ وأما سَيْفُه نَغْرِدُ
 في كُلِّ يومٍ جَلادٍ لو أَلَمَّ به
 عمرو بن وُدٍّ (١) عَداه الصَّبْرُ والجَلَدُ
 شِمٌّ بالشَّامِ سيوفا من عزائمهم
 إذا غَدَّتَ المواضِي ليس تنغمد
 ولا تَخَفُ؛ فالعَوَالِي شوْكُها ثَمَرٌ
 حلَوُ الجنى ، والمعالي صابِها شُهْدُ
 واخْطُبْ بِحَدِّ المواضِي كُلَّ شائِخَةٍ
 في أنفِها شَمَمٌ ، في جِيدِها غَيْدُ
 فمن يَكُنْ بالمواضِي خاطبا أبدا
 زُفَّتْ إليه بِلادٌ كُلُّها خُرْدُ (٢)

ويصف مرّةً أخرى هذا الجيش ، فيقول :

(١) عمرو بن ود فارس قريش وشجاعها في الجاهلية وأدرك الإسلام ولم يسلم.

(٢) خرد . جمع خريدة ، وهي الحبيبة .

بَارِعَنَ مِثْلَ رُعَيْنِ الطَّوْدِ بِحَجْرٍ (٥)

تَضِيْقُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ الرَّحَابُ

نَحْمِيسُ سَوْفَ تَرْضَى الْبَيْضُ عَنْهُ

إِذَا زَارَتْ ضِرَاعَهُ الْغِيَابُ

تَسْكُرُهُ عَلَى الصُّقُورِ بِهِ أَسْوَدُ

عَلَيْهَا لَلْقَنَا الْخَطِيءُ غَابُ

كَأَنَّ مُثَارَةَ قَسَطَلِهِ (٦) عَلَيْهِمْ

إِذَا طَلَعَتْ شَمُوسُهُمْ مُضَابُ

وَيَصِفُهُ اسَامَةُ بْنُ مَنقَدٍ ، فَيَقُولُ :

وَبَدَلَتْ أَمْوَالَ الْخَزَائِنِ بَعْدَمَا

هَرَمَتْ وَرَاءَ خَوَاتِمِ الْخَزَائِنِ

فِي جَمْعِ كُلِّ مُجَاهِدٍ ، وَمَجَالِدٍ

وَمُبَارَزٍ ، وَمُنَازِلِ الْأَقْرَانِ

(٥) الأرعن : جبل ذو أنف يتقدمه . والطود : الجبل . والحجر : الجيش العظيم

(٦) القسطل . الغبار .

وهذا الشعر كله يجمع على شجاعة جند صلاح الدين، وحبهم
للقِتال، وإقدامهم على أعدائهم في بسالة وعزم.

وصلاح الدين لا يرضن على هذا الجيش بما، بل هو كريم
مع جنده، وتلك سياسة حكيمة، قال عبد المنعم الجلياني:

إنَّ الملوكَ الذين امتدَّ أمرُهُم

لم ينجزُوا المالَ، بل مَهْمَا حَوَّوْا بَدَّلُوا

كذا السِّياسةُ، فالأجنادُ لو عاموا

بُنْجَلَ المَلِكِ وجاءت شِدَّةُ خذلوا

وأشاد الشعر كذلك بأسطول صلاح الدين وما جلبه من

الأسرى، إذ قال ابن روضة الحموي:

لقد خَبَرَ التَّجاربَ مِنْهُ حَزْمٌ

وَقَلَبَ دَهْرَهُ ظَهراً لِبَطْنِ

فَكَفَّ الكُفْرَ أن يطفئ بِمَكْرِ

مُجَيِّدٍ كلَّ ذِي فِكْرٍ وَذِهْنِ

فساق إلى الفرنج الخليل برا

وأدر كههم على بحري بسمن

لقد جلب الجوارى بالجوارى

يَمْدَنَ بِكُلِّ قِدِّ مَرْجِحِينَ (١)

ووصف الشعر أيضاً رأيته وسيفه ورمحه وجواده ، فقال

سعادة بن عبد الله :

ورأيت ما هفت يوماً ذوائبها

إلا على قدِّ عسّالٍ من الذُّبُلِ (٢)

صفراء ، خافقةٌ بالنَّصْرِ ، حائِرةٌ

بالحول (٣) ما لم يحزُهُ الغيرُ بالحيل

منشورةٌ ليس يُطَوِي عزمُ صاحبها

حتى ينالَ مكاناً قطُّ لم يُنَالِ

وصارمٌ مرهفٌ خفت مضاربه

فليس يسبقُ إلا سرعةَ الأجلِ

(١) المرجحون : المائل . (٢) العسال : الريمج . والذبل ، جمع ذابل ، وهو القناة . (٣) الحول : الخدق ، وجودة النظر ، والقدرة على التصرف والقوة ، والقدرة .

سيفٌ ليوسفَ ما قَدَّتْ حديدتهُ
إلا من الظفرِ المقرونِ بالجدلِ
كأنه ، وهو في يميناهُ مُنصَتٌ
برقٌ جلا عارضًا في عارضِ هَطَلِ (١)

وذابلُ عطفه يهتزُّ من طرب
إلى الطمانِ ولا يهتزُّ من خطلِ
يزدادُ من طوله طولًا براحتيه
إذا طَوَّالُ الرُدينيَّاتِ لم تَطَلِ
وسابحٌ لو يجارى الرِّيحَ عاصفةً
لقُيِّدَتْ خطواتُ الرِّيحِ بالفشلِ
سَهْلُ القِيادِ ، فما يُعزَى إلى شَغَبِ
جَمِّ النَّشَاطِ ، فما يُدعى إلى كَسَلِ
نَجْمٌ يَمُرُّ ببدرٍ في دُجَى قَتَمِ
صَقَرٌ يَكُرُّ بليثٍ في شَرَى أَسَلِ (٢)

(١) العارض المهلل . السحاب الماطر . (٢) الأسل . الرماح .

وصلاح الدين بجيشه العرمرم يهين الفرنج ، ويذلهم ، ويحطم
 قواهم ، ويخضد شوكتهم ، قال العماد :
 بنو الأصغر الإفرنج لاقوا ببضه
 وسُمِرَ عواليه منأيامهم حُمرا
 وما ابيض يوم النصر ، واخضر روضه
 من الخصب حتى اسود بالنتع واغبرا

— ٥ —

فليس بعجيب أن يرتاع الشعر لفقده ، وان يرتبه اجر
 رثاء ، ويندب فيه تلك الحلال السمحة التي جعلته حبيبا إلى
 القلوب ، أثيراً لدى النفوس ، ورمزاً للدفاع عن الإسلام ،
 واسترداد الوطن السليب ، فن ذلك تلك القصيدة للعماد بلغت
 مائتين واثنين وثلاثين بيتاً يقول فيها :
 شمل الهدى والملك عم شتاته

والدهرُ ساء ، وأقلعت حسناته

أين الذي كانت له طاعاتنا

ميدولة ، ولربّه طاعاته

بِاللَّهِ ، أَيْنَ النَّاصِرُ الْمَلِكُ الَّذِي
لِلَّهِ خَالِصَةٌ صَفَتْ تِيَّارَتُهُ
أَيْنَ الَّذِي مَازَالَ سُلْطَانَنَا
يُرْجَى نِدَاؤُهُ ، وَتُنَقَّى سَطَوَاتُهُ
أَيْنَ الَّذِي شَرَفَ الزَّمَانَ بِفَضْلِهِ
وَسَمَّتْ عَلَى الْفَضْلَاءِ تَشْرِيفَاتُهُ
أَيْنَ الَّذِي عَنَتَ الْفَرَنْجُ لِبَاسِهِ
ذُلًّا ، وَمِنْهَا أَدْرَكَتْ ثَارَاتُهُ
مَنْ فِي الْجِهَادِ صِفَاحُهُ مَا أُغْمِدَتْ
بِالنَّصْرِ ، حَتَّى أُغْمِدَتْ صَفَحَاتُهُ
لَدَى الْمُتَعَابِ فِي الْجِهَادِ ، وَلَمْ تَكُنْ
مُذْ عَاشَ قَطُّ لِدَائِهِ لِدَائَتُهُ
مَسْعُودَةٌ غُدُوَاتُهُ ، مَحْمُودَةٌ
رُوحَاتُهُ ، مَيْمُونَةٌ صَحَوَاتُهُ

لا تحسبوه مات شخصا واحدا
 قد عمَّ كلَّ العالمين مماتهُ
 ملكٌ عن الإسلام كان محاميا
 أبدا، إذا ما أسلمته حُماةُ
 قد أظلمتْ مُذْغابٌ عَنَّا دورُهُ
 لما خَلَّتْ من بَدْرِهِ داراتُهُ
 دَفِنَ السَّمَّاحُ، فليس تُنْشَرُ بعدما
 أودى إلى يومِ النُّشورِ رُفَاتُهُ
 الدينُ بعد أبي المظفرِ يوسفٍ
 أقوت قراهُ، وأقفرت ساحاتُهُ
 ما كنتُ أعلمُ أنَّ طودا شاخحا
 يهوى، ولا تهوى بنا مهواتُهُ
 منَ الليثيِّ والأراميلِ راحمٌ
 متعطفٌ مفضوضَةٌ صدقاتُهُ

لو كان في عصر النبيّ لأُنزلت
في ذكره من ذكره آياته
يا راعيا للدين حين تمكّنت
منه الذّئاب ، وأسلمته رعاته
ما كان ضررك لو أقت مراعيّاً
دينا تولّى مذ رحلت وولاته
أرضيت تحت الأرضِ يا مَنْ لم يزل
فوق السماءِ عليه درجاته
أعزّز على عيني برؤية بهجة
الدنيا ، ووجهك لا تُرى بهجاته
مَنْ للشعور ، وقد عداها حفظه
مَنْ للجهاد ولم تُعد عاداته
ملأت مهابته البلاد ؛ فإنه
أسد ، وإن بلاده غاباته
ما كان أسرع عصره لما انقضى
فكأتمّا سنواته ساعاته

فعلى صلاح الدين يوسف دائماً

رضوانُ ربِّ العرشِ بل صلواته

وهذا الجزء من القصيدة يلمس النواحي الإسلامية التي ندبها المسلمون عند ما فقدوا صلاح الدين ، وبين ما كان يملأ قلوبهم من حب له وإعزاز ؛ فالشاعر يتألم ؛ لأنه يرى الدنيا الجميلة ولا يرى وجه صلاح الدين ، ويشعر بأن أيامه قد انقضت مسرعة كأنها ساعات ، ويمجد أعمال صلاح الدين ، لدرجة أنه يراها جديرة بأن ينزل فيها قرآن ، لو أنها تمت في عصر نزول القرآن .

وبعد ، فلست أدعى أن الشعر الذي قيل في صلاح الدين يروعتنا جميعه بقوة أسلوبه ، فقد نجد عبارة بعض الشعراء الذين تغنوا بطولته لم تستطع أن يكون لها نصيب كبير من القوة والجزالة ، ولكنها برغم ذلك تبين عن عاطفة صادقة ، وتحاول أن تسجل إعجابها بهذا البطل المجيد .

ومن المؤكد أن للعصر الذي أنشئ فيه هذا الشعر أثره في تقييد كثير من الإنتاج الشعري بالرغبة الملحة في أن يكون

للصنعة والزخرف مكان في هذا الشعر ، إذ تجدد فيه كثيراً من
ألوان المحسنات البديعية .

ولكن ذلك لم يستطع أن يجذب عن قلوبنا ما كان الشعراء
يحبسون به نحو فاتح بيت المقدس ، وهازم الفرنج الهزائم المنكرة ،
وما كان يتصف به من أخلاق جمعت حوله قلوب معاصريه .

وإذا استثنينا بعض الهنات التي وردت في هذا الشعر رأينا
الباقى لنا مما صور به بطولة صلاح الدين ، واضح التعبير ، سليماً
في دلالة على معناه ، قريب المأخذ ، لاغموض في فهمه ، ولا التواء
في دلالة ، ووجدنا الصور التي اختارها الشعراء واضحة بينة ،
مما يدل على أن قائل الشعر كانوا يجدون في أنفسهم إعجاباً قوياً
بالبطل ، واستطاعوا أن يعبروا عن هذا الإعجاب بخير ما في
وسعهم من الشعر .

صلاح الدين

بين كتاب عصره

الكتاب في الحديث عن صلاح الدين ، فأرخوا له
حيناً ، وسجلوا سماته الخلقية حيناً آخر ، ونخص
بالذكر ثلاثة من بين كتاب عصره ، هم : ابن شداد ، والعماد
الأصبهاني ، والقاضي الفاضل .

أما ابن شداد فقد وضع فيه كتاباً سماه : النوادر السلطانية ،
والمحاسن اليوسفية . جعل قسمه الأول في ذكر مولد صلاح الدين
وأوصافه وشمائله ، وجعل القسم الثاني في بيان تقلبات أحواله
وفتوحاته .

وتحدث في القسم الأول عن مواظبة صلاح الدين على
القواعد الدينية ، وعن عدله ، وكرمه ، وشجاعته ، واهتمامه
بأمر الجهاد ، وصبوره ، وحلمه ، ومحافظته على أسباب المروءة .
ويروى ابن شداد ما رآه من أحواله التي تثبت هذه
الصفات ، فمن ذلك قوله : « وكان (قدس الله روحه) حسن
الظن بالله ، كثير الاعتماد عليه ، عظيم الإنابة إليه . ولقد شاهدت
من آثار ذلك ما أحكيه : وذلك أن الفرنج (خذلهم الله)

كانوا نازلين بييت نوبة ، وهو موضع قريب من القدس الشريف ،
 حرسها الله تعالى ، بينهما بعض مرحلة ، وكان السلطان بالقدس ،
 وقد أقام (يزكا) ^(١) على العدو محيطا به ، وقد سير إليهم
 الجواسيس والخبرين ، فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصعد
 إلى القدس ومحاصرتهم ، وتركيب (القنابل) عليه ، واشتدت
 مخافة المسلمين بسبب ذلك ، فاستحضر الأمراء ، وعرفهم
 ما قد دهم المسلمين من الشدة ، وشاورهم في الإقامة بالقدس ...
 ولقد جلست في خدمته في تلك الليلة ، وكانت ليلة الجمعة ، من
 أول الليل إلى أن قارب الصبح ، وكان الزمان شتاء ، وليس
 معنا ثالث إلا الله تعالى ، ونحن نقسم أقساما ، وترتب على كل قسم
 بمقتضاه ، حتى أخذني الإشفاق عليه والحوف على مزاجه ،
 فشفتُ إليه ، حتى يأخذ مضجعه ، لعله ينام ساعة ؛ فقال (رحمه
 الله) : لعلك جاءك النوم ، ثم نهض ، فواصلت إلى بيتي ،
 وأخذت لبعض شأني ، إلا وأذن المؤذن ، وطلع الصبح ، وكنت
 أصلي معه الصبح في معظم الأوقات ، فدخلت عليه ، وهو يمر
 الماء على أطرافه ، فقال : ما أخذني النوم أصلا ؛ فقلت : قد
 عامت ؛ فقال ؛ من أين ؟ ؛ فقلت : لأنني ما نمت ، وما بقي وقت

(١) اليك بالفارسية : الحرس .

للنوم ؛ ثم اشتغلنا بالصلاة ، وجلسنا على ما كنا عليه ؛ فقلت
 له : قد وقع لي واقع ، وأظنه مفيدا إن شاء الله تعالى ؛ فقال :
 وما هو ؟ فقلت له : الإخلاق إلى الله تعالى ، والإجابة إليه ،
 والاعتماد في كشف هذه الغمة عليه ؛ فقال : وكيف نصنع ؟
 فقلت : اليوم الجمعة ، يغتسل المولى عند الرواح ، ويصلي على
 العادة بالأقصى ، موضع مسرى النبي (صلى الله عليه وسلم) ،
 ويقدم المولى التصديق بشيء خفية على يد من يثق به ، ويصلي
 المولى ركعتين بين الأذان والإقامة ، ويدعو الله في سجوده ،
 فقد ورد فيه حديث صحيح ، وتقول في باطنك : « إلهي ، قد
 انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك ، ولم يبق إلا الإخلاق (1)
 إليك ، والاعتصام بمجلك ، والاعتماد على فضلك ، أنت حسي
 ونعم الوكيل » ؛ فإن الله أكرم من أن يجيب قصدك ؛ ففعل
 ذلك كله ، وصلت إلى جانبه على العادة ، وصلى الركعتين بين
 الأذان والإقامة ، ورأيت ساجدا ، ودموعه تتقاطر على شيبته ،
 ثم على سجّادته ... » .

ويتحدث ابن شداد عن حبه للجهاد ، فيقول : « ولقد كان
 حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه

(1) أخذ إلى فلان : ركن إليه -

استيلاء عظيماً ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا في
آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره
ويحبه عليه . ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده
ووطنه وسائر بلاده ، وقنَّع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة
تهب بها الرياح ميمنة وميسرة ؛ ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة
ريحته على مرج عكا ، فلو لم يكن في البرج لقتلته ، ولا يزيده
ذلك إلا رغبة ومصاربة واهتماما . وكان الرجل إذا أراد أن
يتقرب إليه يحثه على الجهاد ؛ وأنا ممن جمع له فيه كتابا ، جمعت
فيه آدابه ، وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روى في فضله ،
وشرحته غريبها ؛ وكان (رحمه الله) كثيراً ما يظالعه ...
ولأحكين عنه ما سمعته منه ، وذلك أنه ... لما صلى العيد في القدس
وقع له أن يمضى إلى عسقلان ... ثم يعود على طريق الساحل
يتفقد البلاد الساحلية إلى عكا ويرتب أحوالها ... ثم سرنا في
خدمته إلى الساحل طالبي عكا ، وكان الزمان شتاء ، والبحر
هائجاً شديداً ، وموجه كالجبال كما قال تعالى ، وكنت حديث
عهد برؤية البحر ، فعظم أمر البحر عندي ، حتى خيل لي أني
لو قيل لي : إن جزت في البحر ميلاً واحداً ملكتك الدنيا
لما كنت أفعال ، واستسخرت رأى من ركب البحر رجاء دينار

أو درهم ، واستحسن رأى من لا يقبل شهادة راكب بحر .
هذا كله خطر لى ؛ لعظم الهول الذى شاهدته من حركة البحر ؛
فبينما أنا فى ذلك إذ التفت إلى (رحمه الله) ، وقال : « أما أحكى
لك شيئاً فى نفسى : إنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل ،
قسمت البلاد ، وأوصيت ، وودعت ، وركبت هذا البحر إلى
جزائره واتبتهم فيها ... » ؛ فعظم وقع هذا الكلام عندى ،
حيث مناقض ما كان خطر لى ، وقلت له : ... ما هذه إلا نية
جميلة ، ولكن المولى يسير فى البحر المساكركر ؛ وهو سور
الإسلام ومنعته ؛ فلا ينبغى له أن يخاطر بنفسه ؛ فقال :
أنا أستفتيك : ما أشرف الميتتين ؟ ؛ فقلت : الموت فى سبيل الله ؛
فقال : غاية ما فى الباب أن أموت أشرف الميتتين .

ويعد كتاب ابن شداد من أعظم المراجع فى تاريخ
صلاح الدين .

أما العماد الكاتب ، وهو من كتاب الإنشاء لصلاح الدين فله
كتاب الفيح القسى فى الفتح القدسى ، وقد سمي العماد كتابه بذلك
يشير إلى أنه فى فصاحته كأنه نفحة من نفحات قس بن ساعدة
الإيادى الخطيب الجاهلى الفصيح المشهور .

وفي أول الكتاب يبين العماد منهجه الأدبي التاريخي في
الكتابة عن صلاح الدين .

ولما كان قد سار على نهج إيراد الحوادث متتابعة على حسب
السنين ، وكان قد بدأ بإيراد الأحداث منذ سنة ثلاث وثمانين
 وخمسة ، وهي السنة التي فتح فيها بيت المقدس قال ، معللاً سبب
اختياره البدء بهذا العام : «وأنا أرخت بهجرة ثانية ... وهذه
الهجرة هي هجرة الإسلام إلى البيت المقدس ، وقائمها السلطان
صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب ، وعلى عامها يحسن أن
يبنى التاريخ وينسق ، وتسفر عن أهلتها آدوى»^(١) المداد وتنشق ...
وهذه الهجرة أبقى المهجرتين ، وهذه الكرة بقوة الله أبقى
الكرتين ، فإن العرب كانت إذا تناهت في وصف الرجل بالقوة
قالت : كأنه كسر ثم جبر ، والحق أن نقول : إن أطول الحياتين
حياة المرء إذا مات ثم نشر ، والعيان يشهد أن أمنع السورين
ما عمر بعد أن ثغر ... »

فكتاب الفتح القدسي يبدأ بتاريخ الحوادث التي جرت في
عصر صلاح الدين منذ السنة التي فتح فيها بيت المقدس إلى السنة

(١) الآدوى : جمع داء ، وهي ثلاث ليال من آخر الشهر . شبه بها المداد
لشدة سوادها .

التي مات فيها صلاح الدين ، وهي سنة تسع وثمانين وخمسمائة ،
يؤرخ وفاته وما أعقب هذه الوفاة من أحداث .

وقد التزم العماد في هذا الكتاب اللغة الفنية المصنوعة من
ألف الكتاب إلى يائه ، والتزم السجع التزاما لم يتخل عنه ،
فعرض حوادث التاريخ عرضا أدبيا ، يمزج فيه الحقائق بعواطف
الأديب وإحساساته . وهذا طرف من وصفه لفتح طبرية :
« وتزل على طبرية في خواصه ، وذوى استخلاصه . . . وكان
ذلك يوم الخميس ، وهو يوم الخميس ، . . . ودخل الليل وصباح
الفتح مسفر ، وليل الويل على العدو معتكر ، . . . ولما سمع القومص
بفتح طبرية وأخذ بلده ، سقط في يده ، وخرج عن جلد جلدته ،
وسمح للفرنج بسبده ولبده (١) ، وقال لهم : لا تعود بعد اليوم ،
ولا بد من وقم (٢) القوم ، وإذا أخذت طبرية أخذت البلاد ،
ودهبت الطراف والتلاد ، وما بقي لى صبر ، وما بعد هذا
الكسر لى حير ، وكان الملك قد حالفه ، فما خالفه ، وواقفه فما
نافقه ، . . . ورحل بمجمعه ، وبصره وسمعه ، وثمانينه وشياطينه ،

(١) سبده ولبده : قلبه وكثيره .

(٢) وقم : قهره وأذله .

وسراحيه^(١) وسراحيته^(٢) ، وأتباع غيه ، وأشباع بغيه ،
فمادت الأرض بحركته ، وغامت السماء من غبرته ، ووصل الخبر
بأن الفرنج ركبوا، وثابوا عن ثبات سبكاتهم^(٣) ووثبوا، وعبوا ،
ودبوا حتى يذبوا ، وشبوا النار ، ولبوا النار ، وقدموا
للنزول بالدار البدار ؛ وذلك في يوم الجمعة رابع عشر شهر
ربيع الآخر ، فاكذب السلطان الخبر حتى صدق عزمه، بما سبق
به حكمه ، وسرحين أحاط بمسيرهم علمه ، وقال : قد حصل
المطلوب ، وكل المخطوب ، وجاءنا ما نريد ، ولنا بمحمد الله الجدد
الجديد ، والحد الحديد ، والبأس الشديد ، والنصر العقيد ؛
وإذا صحت كسرتهم ، وقتلت وأسرت أسرتهم ، « فطرية »
وجميع الساحل ما دونها مانع ، ولا عن فتحها وازع ، واستيخار
الله وسار ، وعدم القرار .

وبرغم ما التزمه العهاد من السجع والجناس وغيرها من
ألوان المحسنات فقد استطاع أن يصور لنا المعركة ، والملوك
أسرى بعد هزيمتهم ، ولكنه كان أكثر وضوحا وتأثيرا في

(١) الفرس السرحوب : الطويلة . ويقال : رجل سرحوب . والسرحوب :
ابن آوى .

(٢) السرحان : الذئب .

(٣) مرض ثبات : معجر ، والسبات . النوم .

تصوير ميدان القتال بعد أن دارت الدائرة على العدو ، فصور
امتلاء الأرض بجثثهم ، وما أصاب هذه الجثث من تشويه ودمار ،
ثم ما كان من أمر الأسرى مقيدين في الجبال ، أو مضروبا
عليهم الذلة في حراسة أحد الحراس .

أما القاضي الفاضل فكان أعظم كتاب صلاح الدين شأننا ،
وأشدهم إليه قربا ، استوزره صلاح الدين ؛ فكان القاضي
الفاضل لسان الدولة الصلاحية ، ولهذا لا يكاد يقع حدث في هذه
الدولة من غير أن يكون لقلم القاضي الفاضل مشاركة فيه ؛ فهذا
القلم كانت تذيع بشائر الفتوح إلى بغداد وأنحاء العالم الإسلامي ،
وبه يرسل صلاح الدين إلى ملوك الإسلام يخبرهم بأبناء الحرب ،
ويستنجد بهم ، بل به كان يبعث رسائله الشخصية ، ويرسل
أخبار حكومته وأوامره إلى ولاته ونوابه ؛ فكان من ذلك
محصول ضخم من الرسائل هو سجل دقيق لأبناء الدولة
الصلاحية .

فمن رسالة كتبها إليه ، عندما قدم صلاح الدين إلى الشام
يريد الجهاد . وطرده العدو من الوطن الإسلامي ، ولكن أمورا
عاقت صلاح الدين عن المبادرة إلى الجهاد ، فتألم السلطان لذلك
ألماشديدا ، فكتب إليه القاضي الفاضل يخفف عليه وقع هذا

الأم ، ومما كتبه إليه : « وأما تأسف المولى على أوقات ينفضى
عاطلها من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها ، ويجدد العوائق
التي لا يوصل إلى آخر جبلها ، فللمولى نية رشده . أو وليس
الله العالم بعبده ، وهو سبحانه لا يسأل الفاعل عن تمام فعله
لأنه غير مقدور له ، ولكن عن النية لأنها محل تكليف الطاعة ،
وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة ، وإذا كان
المولى آخذا في اسباب الجهاد ، وتنظيف الطرق إلى المداد ،
فهو في طاعة قدامتن الله عليه بطول أمدها ، وهو منه على أصل
في نجاح موعدها . والثواب على قدر مشقته ، وإنما عظم الحج
لأجل جهده وبعد شقته ؛ ولو أن المولى فتح الفتوح العظام
في أقل الأيام ؛ وفصل القضية بين أهل الإسلام ، وأعداء الإسلام ،
لكانت تكاليف الجهاد قد قضيت ، وصحائف البر المكتسبة
بالمرابطة والانتظار طويت . »

ومن هذه الرسالة يبدو شوق صلاح الدين إلى الجهاد ،
وتألمه من انقضاء وقت لا يتحقق فيه استخلاص هذا الجزء
المغتصب من أرض الوطن .

ويسجل القاضي الفاضل ما أسقطه السلطان من المكوس على
حجاج مكة ، وتعويض أميرها عن ذلك بغلة تحمل إليه في كل

سنة ، و تعيين ضياع موقوفة عليه بالديار المصرية ؛ فقد كان الرسم بمكة ان يؤخذ من الحجاج القادمين من المغرب ضرائب على كل فرد . فإذا دخل حاج حبس حتى يؤدي ماعليه ، وإذا كان فقيرا لا يملك شيئا حبس ولا يترك ، ويفوته الوقوف بعرفة ، فقال السلطان : لابد أن نعوض أمير مكة عن هذا المكس بمال ، وإن أعطيناه نبيعا استوعبها ، ولا يكون لأهل مكة فيها نصيب ، فقرر معه ان يحصل إليه في كل سنة مبلغ ثمانية آلاف إردب قمح إلى ساحل جدة ، فإن الأمير بها يحتاج إلى بيعها للانتفاع بأثمانها ، وقرر أيضا حمل الغلات إلى المجاورين بالحرمين ، وكان ذلك سنة اثنتين وسبعين وخمسة . ومن كلام الفاضل عن ذلك في بعض كتبه . « من البشائر التي لاعهد لحاج ديار مصر بمنلها ، ولا عهد للملك من ملوك الديار المصرية بالحصول على نفرها وأجرها ، انقطاع المكاسين عن جدة ، وعن بقية السواحل ، ويكفي أن تمام هذه المثوبة موجب الاستطاعة ، مقيم بحجة الله في الحج ، فقد كانت النية على سقوطه مع وجود الحائل ؛ وما أكثر ما أجرى الله على يد المولى من الأرزاق ، التي تفضل عن الاستحقاق . . . وغير خاف عن مولانا همة الفرنج بالتمسك ببرا وبحرا ، ومركبا وظهرا ، وسلما وحربا ، وبعدا وقربا ، وتوافقهم على حماسه وهو أتف في وجه الإسلام ، ومسارعهم إلى نصره أهليه بالأرواح

والأموال على مر الأيام ، ومعاذ الله أن يستبصروا في الضلال ،
ونصرف نحن عن الحق ويضيق بنا في التوسعة على أهله
سعة المجال ، ... »

وقد كان لهذه المكرمة أثرها في الشعر فسجلها محمد بن جبير
الأندلسي ، فقال من قصيدة في صلاح الدين :

رَفَعْتَ مَغَارِمَ تَمَكُّسِ الْحِجَّازِ
بِإِنْعَامِكَ الشَّامِلِ الْغَامِ

وَأَمَّنْتَ أَكْنَافَ تِلْكَ الْبِلَادِ
فَهَانَ السَّبِيلُ عَلَى الْعَابِرِ

وَسُحِبُ أَيَادِيكَ فَيَاضَةٌ
عَلَى وَارِدٍ ، وَعَلَى صَادِرِ

فَكَمْ لَكَ بِالشَّرْقِ مِنْ حَامِدٍ
وَكَمْ لَكَ بِالْغَرْبِ مِنْ شَاكِرِ

وَكَمْ بِالِدَّعَاءِ لَكُمْ كُلِّ عَامٍ
بِمَكَّةَ مِنْ مُعَلِّينِ جَاهِرِ

وَحَبِّكَ أَنْطَقَنِي بِالْقَرِيضِ
وَمَا أَبْتغَى صِلَةَ الشَّاعِرِ

والرسالة والقصيدة ناطقتان بما قابل به العالم الإسلامي هذه
المكرمة الصلاحية من التقدير والإعجاب وتمكين حب
صلاح الدين في نفوس شعبه والعالم الإسلامي كله .

وفي كتاب فاضلي يصف القاضي ما كان يلاقه صلاح الدين
من الأدعياء الذين اضطّر إلى جهادهم حيناً ، ومسالمتهم حيناً ،
وكان يودّه أن لو صرف جهده كله لحرب العدو الذي اغتصب
فلسطين ، إذ يقول الفاضل من رسالة على لسان السلطان : « وقد
علم الله أنا لهدتهم كارهون ، وفي مصلحة أهل الإسلام وفي
مصالحهم راغبون ، ولكننا بلينا بقوم كالفراش أو أخف عقولا ،
وكالأنعام أو أضل سبيلا ، إن بنى معهم فعلى غير أساس ، وإن
عدّد الغدر منهم فهو أكثر من الأنفاس » .

وذلك يدلنا على أن صلاح الدين لم يكن الطريق أمامه ممهدا
للوصل إلى أهدافه في توحيد البلاد ، بل كان يجد كثيرا من
العتت من هؤلاء الذين كانوا يؤذيمهم وحدة البلاد .

ويسجل القاضي الفاضل في كتاب له رحلة صلاح الدين
إلى الإسكندرية ، وسماعه موطأ الإمام مالك من الإمام المحدث
أبي طاهر بن عوف العالم السكندري ، فقد كتب إليه رسالة يهنئه
فيها بهذا السماع ، ويقول : « أدام الله دولة المولى الملك الناصر

صلاح الدنيا والدين ، وسلطان الإسلام والمسلمين ، محيي دولة
 أمير المؤمنين ، وأسعده برحلته للعلم وأثابه عليها ، وأوصل
 ذخائر الخير إليه وأوصله إليها ، وأوزع^(١) الخلق شكر النعمة
 فيه فإنها نعمة لا توصل إلى شكرها إلا بإيزاعه ، وأودع قلبه
 نور اليقين فإنه مستقر لا يودع فيه إلا ما كان مستندا إلى إيداعه ،
 ولله في الله رحلتاه ، وفي سبيل الله يوماه ، ومامنهما إلا أغر
 محجل ، والحمد لله الذي جعله ذا يومين : يوم يسفك دم المحابر
 تحت قلمه ، ويوم يسفك دم الكافر تحت علمه ؛ ففي الأول
 يطلب حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم فيجعل أثره عينا
 لا تستر ، وفي الثاني يحفل لنصرة شريعة هداة على الضلال فيجعل
 أثرا لا يظهر ، وقد استغرق الناس همهم العلماء في رحلتهم لنقل
 الحديث وسماعه ، والمواالاة في طلب ثقتة وانتجاعه ، وصنفوا في
 ذلك تصانيف قصدوا بها التحريض للهمم والتنبيه ، والرفع من
 أقدار أهله والتنويه ، فقالوا : رحل فلان لسماع سند فلان ،
 وسار زيد إلى عمرو على بعد المكان . هذا وصاحب الرحلة قد
 نصب نفسه للعلم وشغل به دهره ، ووقف عليه فكره ،
 فلا يتجاذب عنان الكبائر ؛ فما القول في ملك خواتره كأبوابه
 مطروقة ، وأمور خلق الله كأموار دينه به معدوقة^(٢) ، إذ هاجر

(١) أوزع : ألمم

(٢) عنق فلانا بكذا : اختصه به .

إلى بقية الخير في أضيقت أوقاته ، وترك للعلم أشد ضروراته ،
 ووهب له أياما مع أنه في الغزاة يحاسب لها نفسه على لحظاته
 وساعاته . وما يحسب المملوك أن كاتب اليمين كتب قط للملك
 رحلة في طلب العلم إلا للرشيد هارون ، رحمة الله عليه ، على أنه
 خلط زيارة نبوية بطلب ، ورحل بولديه إلى مالك رحمة الله عليه
 لسماع هذا الموطأ الذي انفقت الهمتان : الرشيدية والناصرية على
 الرغبة في سماعه ، والرحلة لانتجاعه ، (١) وقد كان الرشيد
 سام مالكا أن يجعل له ولولديه : الأمين والمأمون مجلسا خاصا
 لإسماع مصنفه فقال له ما معناه : إنها سنة ابن عمك صلى الله عليه
 وسلم وغيرك من سترها ، ومثلك من نشرها ؛ فهذه رحلة ثانية
 في الزمان ، وأولى في الإيمان ، يكتبها الله للمولى بقلم كاتب
 اليمين ، ويقوم فيها مقام الرشيد ويقوم عليه وعثمانه (٢) مقام
 المأمون والأمين ، ... » .

والرسالة شاهد صدق على حب صلاح الدين للعلم ، ورحلته
 في طلبه ، برغم ما كان لديه من أعمال وواجبات وجهاد يتطلب
 وقته كله .

(١) انتجع القم الكلاب : ذهبوا لطلبه في مواضعه .

(٢) علي وعثمان : ولدا صلاح الدين .

وهذا كتاب فاضلي يصف ابتهاج صلاح الدين بانتصار جيشه
على الفرنج الذين ساروا في البحر الأحمر ، ومضوا إلى جزيرة
العرب يريدون قبر الرسول ؛ ففي شوال سنة ثمانى وسبعين
وخمسة ، فكر صاحب الكرك الفرنجى عندما توالى عليه
الهزائم من العرب المقيمين بقلعة أيلة : (مدينة العقبة) فى أن ينال
من المسلمين ، وأن يغزو مدينة الرسول ، فبنى سفنا ، ونقل
أخشابها على الجمال إلى الساحل ، حيث ركبها وشحنها بالرجال ،
وآلات القتال ، ومضت فى البحر الأحمر نحو عيذاب على الشاطيء
المصرى ، فقطعوا طريق التجار ، وقتلوا وأسروا ونهبوا ؛
ثم توجهوا إلى أرض الحجاز ، وأشرف أهل مدينة الرسول
على خطر ، فورد الخبر إلى مصر وبها العادل أخو السلطان ،
فأمر حسام الدين لؤلؤا قائد الأسطول المصرى أن يمضى إليهم ،
فذهب إلى أسطول العدو ، وأوقع بسفنه ، ثم صعد إلى بر
الحجاز ، وركب الحيل وراء الفرنج ، فحصرهم فى شعب لاء
فيه ، وأسره ، وكتب السلطان إلى الملك العادل أن يضرب
رقابهم جميعاً ، وهذا كتاب بقلم الفاضل إلى بغداد يعلن بهجة
صلاح الدين ، ويصف المعركة ، إذ يقول : « كان الفرنج قد ركبوا
من الأمر نكراً ، وافترضوا من البحر بكرة ، وعمروا مراكب

حرية شحونها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد ، وضربوا بها
سواحل اليمن والحجاز وأثخنوا (١) وأوغلوا في البلاد ، واشتدت
مخافة أهل تلك الجوانب ، بل أهل القبلة لما أومض إليهم من خلل
العواقب ، وما ظن المسامون إلا أنها الساعة وقد نشر مطوى
أشراطها (٢) ، والدنيا وقد طوى منشور بساطها ؛ وانتظر
غضب الله لفتاء بيته المحرم ، ومقام خليفه الأكرم ، وتراث أنبيائه
الأقدم ، وضريح نبيه الأعظم ، صلى الله عليه وسلم ؛ ورجوا أن
تشحد البصائر آية كآية هذا البيت إذ قصده أصحاب الفيل ،
ووكلوا إلى الله الأمر وكان حسبهم ونعم الوكيل . وكان للفرنج
مقصدان : أحدهما : قلعة أيلة التي هي على فوهة بجر الحجاز
ومداخله ، والآخر : الحوض في هذا البحر الذي تجاوره
بلادهم من ساحله ، وانقسموا فريقين ، وسلخوا طريقين ؛
فأما الفريق الذي قصد قلعة « أيلة » فإنه قدر أن يمنع أهلها من
مورد الماء الذي به قوام الحياة ، ويقاثلهم بنار العطش المشبوب
الشباه (٣) . وأما الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن فقدّر

(١) أثخن في القوم : بالغ وأكثرت في قتلهم .

(٢) الأشراط : العلامات .

(٣) شب النار : أوقدها . والشبابة : حد كل شيء .

أن يمنع طريق الحاج عن حجه ، ويحول بينه وبين فجه (١) ،
ويأخذ تجار اليمن ، وأكارم عدن ، ويلم بسواحل الحجاز
فيستبيح والعياذ بالله المحارم ، ويهيج جزيرة العرب بعظمة دونها
العظام . وكان الأخ سيف الدين بمصر قد عمر مراكب وفرقها
على الفرقين ، وأمرها بأن تطوى وراءهم الشقتين ، فأما السائرة
إلى قلعة أيلة فإنها انقضت على مرابطة الماء ، انقضاض
الجوارح (٢) على بنات الماء (٣) . وقذفها قذف شهب السماء ،
مسترقى سمع الظامء . فأخذت مراكب العدو برمتها ، وقتلت
أكثر مقاتلتها ، إلا من تعلق بهضبة وما كاد ، أو دخل في شعب
وما عاد ، فإن العربان اقتصوا آثارهم ، والتزموا إحضارهم ،
فلم ينج منهم إلا من ينهسى عن المعودة ، ومن قد علم أن أمر
الساعة واحدة ، وأما السائرة إلى بحر الحجاز فتهدت في الساحل
الحجازى . . . فأخذت تجاراً وأخافت رفاقاً ، ودلها على عورات
البلاد من الأعراب من هو أشد كفراً ونفاقاً ، وهناك وقع
عليها أحبابنا ، وأخذت المراكب بأسرها وفر فرنجها بعد إسلام
المراكب ، وسلكوا في الجبال مهاوى المهالك ومعاطن المعاطب ،

(١) الفج : الطريق .

(٢) الجوارح من الطير : المفترسة .

(٣) بنات الماء : الأسماء .

وركب أصحابنا وراءهم خيل العرب يشلّونهم شللاً^(١)، ويقتصونهم
أسراً وقتلاً؛ وما زالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلاً ورجلاً، نهاراً
وليلاً، حتى لم يتركوا عنهم خبراً، ولم يبقوا لهم أثراً، وسيق
الذين كفروا إلى جهنم زمراً...» .

وهذه الرسالة والرسائل الأخرى التي دارت حول هذه
المعركة^(٢) دلت على ما امتلأ به قلب صلاح الدين من فرح
بهذا النصر المبين .

* * *

وفي رسالة أخرى يوضح صلاح الدين هدفه من الاستيلاء
على البلاد إذ يقول بقلم القاضي الفاضل : « فتحنا مدينة «حلب»
بسلم ما كشفت بحرمتها قناعاً، وتسامنا قلعتها... وعوض صاحبها
من بلاد الجزيرة، ما اشترط عليه به الخدمة في الجهاد بالعدة
الموفورة، فهي يدنا بالحقيقة؛ لأن مرادنا من البلاد رجالها،
لأموالها، وشوكتها، لازهرتها، ومناظرتها للعدو لا نصرتها،
وأن يعظم في العدو الكافر نكايها، لا أن تعذق بالولى المسلم
ولايتها... فالبلاد بأيدينا لنا مغنمها، ولغيرنا مغرمها، وفي

(١) شل الابل : طردها .

(٢) راجع الروشتين ٢ : ٣٥ وما يليها .

خدمتنا مالا نسمح به وهو عسكرينا، وفي يده مالا نرضى به وهو
درهمنا، ... فلم يخرج منا بلد إلا إلينا عاد عسكريه، وإنما استبنينا
فيه من يحمل عنا مثوته وبدبره، وتكون عسكريه إلى
عسكرينا مضافة، وتمثل قوله سبحانه وتعالى: « وقاتلوا
المشركين كافة، كما يقاتلونكم كافة » .

فالهدف هو توحيد البلاد، وجمع الكلمة لمواجهة العدو،
ولا يعنيه إلا أن تجتمع القوى المبعثرة، والجهود المتفرقة،
وكانت الجهود تبرم بين صلاح الدين وغيره من حكام البلاد
الإسلامية على الاجتماع والتضافر على جهاد الأعداء .

ويؤكد النثر رغبة صلاح الدين في الوحدة التي لا ينتصر
المسلمون بغيرها على العدو، فيكتب القاضي الفاضل على لسانه
رسالة إلى الخليفة ببغداد، وفيها يقول: « ذكر تسامه « حلب »
وأنه لا يؤثر إلا أن تكون كلمة الله هي العليا لا غير، وتغور
المسلمين لها الرعاية ولا ضير، ولا نختار إلا أن تغدو جيوش
المسلمين متحاشدة على عدوها، لا متحاشدة بعثوها، ولو أن
أمور الحرب تصاحبها الشركة لما عز عليه أن يكون كثير
المشاركين، ولا ساءه أن تكون الدنيا كثيرة المالكين، وإنما
أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة، ... والله العالم

أنه لا يقاتل لعيش أئين من عيش ، ولا لغضب يملأ العيان من
نزق ولا طيش ... » .

ويؤكد صلاح الدين دائماً هذا المعنى في رسائله ، وأنه
لا ينبغي سوى هذه الوحدة التي تجلب القوة وتستلزم النصر على
العدو الغاصب . أما أعداء هذه الوحدة فيصفهم صلاح الدين في
رسالة أخرى بعث بها إلى بغداد بقلم القاضي الفاضل ، إذ يقول
واصفا نفسه ، وموازنا بينه وبينهم ، : « وإذا ولاه
أمير المؤمنين نفرا لم يبت في وسطه وأصبح في طرفه ، وإذا
سوغه بلدا هجر في ظل خيمة ولم يقيم في ظل غرفه ، وإذا بات
بات بسيف له ضجعا ، وإذا أصبح أصبح ومعتك القتال له
ربيعا ، لا كالذين يُغيبون أبواب الخلافة ... وكان الدنيا لهم
إقطاع ، لا إيداع ، وكان الإمارة لهم تخليد ، لا تقليد ، وكان
السلح عندهم زينة لحامله ولا بسه ، وكان مال الخلق عندهم
وديعة فلا عنذر عندهم لماعه ولا لحابسه ، وكانهم في البيوت دمي
مصورة في لزوم جدرها ، لاني مستحسنت صورها ، راضين
من الدين بالعروة اللقية ، ومن أعلى كلتها بما يسمعونه على
الدرجات الحشبية ، ومن جهاد الخارجين على الدولة باستحسان
الأخبار المهلبية ، ومن قتال الكفار بأنه فرض كفاية تقوم به

طائفة فيسقط عن الأخرى في أخرها ... فلا يقنعون بأنهم لا يجاهدون إلى أن ينعوا من يجاهد عنهم ويثاغر، وبأنهم لا يساعدون المسلمين إلى أن يساعدوا عليهم عدوهم الكافر ، فقد تولّوا الشيطان تليدا وطريفا . ووطئوا الإسلام وأهله ووطئا عنيفا ، فإذا جاء وعد الآخرة جاء الله بهم في زمرة الشيطان لفيفا .

وهذه الرسالة صريحة في وصف ما كان يعانيه صلاح الدين من أعداء الوحدة ، أولئك الذين لا هم لهم إلا الاحتفاظ بالسلطان ومظاهر الإمارة وحياة الترف التي يعيشون فيها ، لا يعنون أنفسهم مشقة الجهاد ، بل لا يرضون أن يقفوا موقف سلبيا فحسب ، فظاهروا أعداء الإسلام وأعانوهم . ومن ذلك يبدو أن صلاح الدين كان يحارب عدوين : الفرنج ومن يظاهرونهم من أعداء الوحدة والإسلام ؛ وكان بوده أن يقضى على أولئك ؛ لكي يتفرغ لقتال هؤلاء .

* * *

وقد مرض صلاح الدين فأدرك المسلمون قيمة هذا الرجل ، وعرفوا مكانه في العمل على وحدة الإسلام ؛ لكي يصمد أمام العدو من ناحية ، ويلتقي بالعدو إلى البحر من ناحية ثانية ،

فلا غرو أن يتجه النثر بعودة الصحة إليه ، وأن يبشر أرجاء
البلاد بزوال غمة المرض عن الأمل المرجو للمسلمين ، وهذا
كتاب فاضلي أرسل من دمشق إلى مصر يبشر بسلامة صلاح
الدين من المرض ، ويقول : « إن العافية الناصرية قد استفاضت
أخبارها ، وفاضت أنوارها وآثارها ، وولت العلة والحمد لله
وأطفئت نارها ، وانجلى غبارها ، وحمد شرارها ، وما كان
إلا قلة وقي الله شرها ، وعظيمة كفى الإسلام أمرها ، ونوبة
امتحن الله بها نفوسنا فرأى أقل ما عندها صبرها ، وما كان
الله ليضيع الدعاء وقد أخلصته القلوب ، ولا ليقف الإجابة وإن
سدت طريقها الذنوب ، ولا يخلف وعد فرج وقد أيسر الصاحب
والمصحوب .

نعم زاد فيه الدهر ميا فاصبح بعد بؤسائه نعيما
وما صدق النذير به ؛ لأنى رأيت الشمس تطلع والنجوم
وقد استقبل مولانا السلطان الملك الناصر العافية غضة
جديدة ، والعزمة ماضية حديدة ، والنشاط إلى الجنة مبسوط
البساط ، وقد انقضى الحساب وجزنا الصراط ، وعرضنا نحن
على الأهوال التي من خوفها كاد الجمل يدخل في سم الحياط .
وهذه الرسالة ناطقة بالبهجة التي استولت على النفوس

عندما استرد السلطان عاقبته وصحته ، وبما كان المسلمون يشعرون به إزاء مرض صلاح من فداحة الأمر وشدته . وأنه « عظيمة كفى الإسلام أمرها » ، وأن الابتهاج بالصحة إنما كان لأجل استئناف الجهاد ضد أعداء البلاد . ولذلك بدا بعودة الصحة النشاط إلى الجهاد ، حتى كادت السيوف تهتز في أعقادها .

* * *

وكانت كتب القاضي الفاضل تحمل إلى أرجاء العالم الإسلامي أبناء المعارك التي يخوضها صلاح الدين .

وقد استطاع هذا الكاتب أن يعبر عن عواطف صلاح الدين إزاء الفتوح التي قام بها ، وأنها عادت على الإسلام بنشر كفته ، وعلى بلاد الشام بنشر السلام بين ربوعه .

كما دلت على أن صلاح الدين كان بعيد النظر يؤمن بأن العدو يعد العدة ، ويحشد الجموع ليلتقي بصلاح الدين في معركة يستعيد بها ما فقدته من أرض كان يغتصبها ، ولذلك لم يغفل السلطان عن حشد الجيوش استعدادا لهذا اللقاء المنتظر .

وأحب أن أختتم هذا الفصل بتلك الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل في ساعة موت الساطان ، وبعث بها إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب ، وفيها يقول :

« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة . إن زلزلة الساعة
شئ عظيم . كتبت إلى مولانا السلطان الملك الظاهر ، أحسن
الله عزاءه ، وجبر مصابه ، وجعل فيه الحلف للمليك المرحوم
وأصحابه ، وقد زلزل المسلمون زلزالا شديدا ، وقد حفرت
الدموع المحاجر ، وبلغت القلوب الحناجر ؛ وقد ودعت أباك
ومخدومي وداعا لا تلاقى بعده ، وقد قبلت وجهه عنى وعنك ،
وأسلمته إلى الله تعالى مغلوب الحيلة ، ضعيف القوة ، راضيا عن
الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ وبالباب من الجنود المجندة ،
والأسلحة المغمدة ، ما لا يدفع البلاء ، ولا يرد القضاء ؛ وتدمع
العين ويخشع القلب ، ولا تقول إلا ما يرضى الرب ، وإنا عليك
يا يوسف لمحزونون ؛ وأما الوصايا فما يحتاج إليها ، والآراء فقد
شغلنى المصاب عنها ؛ وأما لأئح الأمر فإنه إن وقع اتفاق
فما عدتم إلا شخصه الكريم ، وإن كان غير ذلك فالمصائب
المستقبلة أهونها موته ، وهو الهول العظيم . والسلام . »

وفي هذه الرسالة يبدو ما نزل بالمسلمين من خيبة مذهلة
عند موت صلاح الدين ، حتى لكأن الأرض قد زلزلت زلزلهما ،
وقد أودع القاضى الفاضل كل عواطفه وإحساساته فى هذه القبلة
على جبين الراحل الكريم ؛ كما يبدو فى الرسالة غيرة الكاتب

على دولة صلاح الدين بعد وفاته ، وحبه في ان يظل الإخوة
مجتمعي الكلمة ، حتى تصبح الدولة لهم ، ولا يتمزق شمل هذه
الإمبراطورية التي وضع أساسها والدمم العظيم .

وكما حزن القاضي الفاضل على فقدان صلاح الدين أبدى
ابن شداد ألمه لذلك عندما استعار لسان أبي تمام عندما قال :
ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم - أحلام
لأنه كان - رحمه الله تعالى - من محاسن الدنيا وغرائبها ،
كما قال صاحب النجوم الزاهرة ؛ ولا تزال ذكراه إلى اليوم
حية في القلوب ، محببة إلى النفوس .

* * *

وبعد ، فقد احتفل الشعر والنثر بصلاح الدين ، ووجدوا فيه
الأمل الذي تتطلع إليه البلاد الإسلامية ، لكي تسترد على يديه
جزءا مسلوبا من وطنها الحبيب ، ورأيا فيه إنسانا نموذجيا في
طباعه وأخلاقه ، فسجلاله هذه الطباع والأخلاق ، ومجدا فيه
السمو الخلقى والتبيل النفسى . ووقفا إلى جانبه يتبعان خطواته ،
ويباركان ما يقوم به من الجهود في سبيل الوصول إلى تحقيق
هدفه الكبير .

وكانت السمة البارزة من بين سماته الجليلة سمة الجهاد وحب

والإقبال عليه يريد إلا يصرفه عنه صارف ، فاستغرق ذلك كثيراً
نما قرضه الشعراء ، وما دبحه الكتاب ، فكتب ابن شداد
معظم صفحات كتابه في وصف ذلك الجهاد وتصوير المعارك ،
وألف العماد كتابه : الفتح القسى في الحديث عن وقائع
صلاح الدين ، وشغل ذلك الجهاد كثيراً من رسائل القاضى
الفاضل .

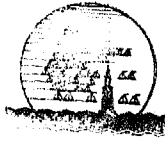
وإذا كان لنا أن نفرق بين الشعر والنثر اللذين دارا حول
صلاح الدين فإن لنا أن نعد الشعر كله تصويراً لعواطف الشعب
نحو صلاح الدين ، فقد ترجم الشعراء عن هذه العواطف ،
ودار الكثير من أبيات قصائدهم على ألسنة الناس يعبرون بها
عما يجول في نفوسهم نحو بطاهم المحبوب .

أما النثر فإنه ما كان صدى لإعجاب الناس بصلاح الدين
ككتابي ابن شداد والعماد ، فكان نثراً كالشعر مليئاً بالعواطف
من كاتبيه . ومنه ما أبان عن عواطف صلاح الدين إزاء
الأحداث التي مرت به في حياته المباركة ، وعن آرائه فيما انتهجه
من سلوك وخطط ، كما نرى ذلك في رسائل القاضى الفاضل ؛
فقد كان يعنى ببيان وجهة نظر السلطان فيما تم على يديه من أعمال .
ولذلك كان على المؤرخين أن يرجعوا إلى هذه الرسائل ؛

ليتبنوا فيها الدوافع التي جعلت صلاح الدين يتجه اتجاهها معنا ،
ولا سيما أن القاضي الفاضل كان لسانه منذ ولي الوزارة للعاضد
إلى أن مات .

وكثيراً ما اشترك الشعر والنثر في موضوع واحد ؛ فنستطيع
أن نرى في الشعر صورة الشعب وعاطفته إزاء صلاح الدين
عندما تم ذلك الحدث ؛ ونستطيع أن نرى في نثر القاضي الفاضل
عاطفة صلاح الدين ورأيه إزاء ذلك الحدث نفسه .

ولا نأخذ على هذا النثر إلا أنه كان كمنثر عصره يعني
بالصناعة كلما أمكنه ذلك ، ويمجد الجمال الفنى في إيقاع الجمل
بالحلى وألوان الزخارف ، مما يتطلب الريث والتمهل في قراءته
أحياناً لكي يصل الإنسان إلى معناه . ولكنه برغم ذلك أدى
رسالته يومئذ ، وكان لهذا النهج الصناعى في ذلك الوقت أثره
في نفوس الناس ، ونستطيع اليوم أن تبين ما كان الكتاب
يريدون أن يدبجوه في لغة يبذلون في أناقتها كل ما يملكون .



Nationalization of the Alexandria Library (C.C.)
Alexandria

المكتبة الثقافية

مكتبة جامعة اسيك أنواع المعرفة

فاحرص على ما فاتك منها . . .

واطلب من:

- ١ - دار القلم ١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة
- ٢ - مكاتب شركة توزيع الأخبار..... في الإقليم المصرى
- ٣ - وكلاء الشركة القومية في جميع البلاد العربية
- ٤ - مكتبة المنى بغداد - العراق



المكتبة الثقافية

- ◆ أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة .
- ◆ تيسر لكل قارئ، أن يقيم في بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- ◆ تصدر مرتين كل شهر * في أوله وفي منتصفه

الكتاب القادم

الحب الإلهي
في التصوف الإسلامي
للدكتور محمد طه مامي

أول نوفمبر ١٩٦٠

Bibliotheca Alexandrina



0276714